
الدار القومية للطباعة والنشر
الكتاب الماسى
قصص عربية
تاريخ ما اهمله التاريخ
حبيب جاماتى
الناصر صلاح الدين
من مختارات الإذاعة والتليفزيون

الكتاب الماسي
قصص عربية

تاريخ ما أهمله التاريخ

الناصر صلاح الدين

حبيب جاماتي

إهــداء

إلى روح المجاهد العظيم والقائد
المظفر الذي أحبه الغريب مثل
القريب، واحترمه العدو مثل الصديق
وبلغ العرب في عهده أوج المجد
والعزة والكرامة، الملك الناصر
صلاح الدين يوسف الأيوبي ...
أهدي هذه المجموعة من الأقاصيص
وهي محاولة متواضعة مني للمساهمة في
كتابة تاريخه وتدوين مفاخره والإشادة
بعبقريته ...

مصر حبيب جاماتي



الملك الناصر صلاح الدين
فى شبابه

تصدير

سئلت مرة من هو ، فى نظرى ــ البطل المثالى بين ابطال الشرق، ومن هو البطل المثالى بين أبطال الغرب ؟

فأجبت انه صلاح الدين الايوبى ــ بين أبطال الشرق وأبطال الغرب على الاطلاق .

كان هذا اعتقادى . ولا يزال . بعد أن قضيت العمر فى مطالعة سيرة العظماء فى التاريخ ، تاريخ الشرق وتاريخ الغرب على السواء .

فقد بلغ صلاح الدين منتهى ما يمكن ان يبلغه حاكم وقائد وزعيم، فى ممارسة الحكم والقيادة والزعامة :

منتهى الدراية فى حكمه ...

منتهى العدالة فى أحكامه ...

منتهى الشجاعة فى حروبه ...

منتهى الحلم فى معاملة خصومه ...

منتهى العطف فى معالجة شؤون رعاياه ...

منتهى الوفاء تجاه من كانوا له أوفياء ...

منتهى الاصالة فى كل راى أبداه ...

وقد تجلت البطولة فى اروع مظاهرها ، خلال الحوادث الجسام التى امتاز بها عهد صلاح الدين الايوبى : بطولة الكبار المعروفين ، وبطولة الصغار المجهولين .

وفى هذه الحلقة من سلسلة «تاريخ ما اهمله التاريخ» نقلت للقارىء نماذج من دراية الملك الناصر ، وعدالته ، وشجاعته ، وحلمه ، وعطفه، ووفائه ، وأصالة رأيه .

وارجو أن اكون قد وفقت فى رسم صورة صادقة لشخصية صلاح الدين الايوبى ، من خلال ما تحلى به من فضائل وخصال .

القاهرة ــ فبراير ــ شباط ١٩٦٢ **حبيب جاماتى**


صلاح لبيب في سطور..

من هو صلاح الدين الايوبى ؟

هو يوسف بن ايوب بن شـــادى . أهله من قرية «دوين» ببـــلاد اذربيجان . وهم أكراد من قبيلة الهذانية . نزلوا ببلدة «تكريت» بالعراق واستعربوا . وفى تكريت ولد يوسف صلاح الدين فى سنة ٥٣٢ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٣٧ للميلاد . وقدر له أن يكون أول من يتولى الملك من اسرته .

وتوفى فى دمشق ، سنة ٥٨٩ هجرية ، الموافقـــة لسنة ١١٩٣ للميلاد ، فى السادسة والخمسين من العمر .

ابن نجم الدين أيوب .

الغى الخلافة الفاطمية بمصر سنة ٥٦٧ هجرية الموافقة لسنـــة ١١٧١ للميلاد .

تولى العرش بالقاهرة . وخضعت له سورية فوحد البلدين .

حارب خصومه ومزاحميه فى الداخـــل فتغلب عليهم . وحارب الصليبيين الوافدين من الخارج فتغلب عليهم ايضا .

ولما وافته المنية ، كان قد استرجع من الافرنج معظم الاقاليم التى تملكوها وبقوا فيها أكثر من ماية سنة .

ولم تقم لدولة أورشليم قائمة من بعده .

اما دولة الايوبيين ــ التى انشأها صلاح الدين ــ فقد حكمت ٧٩ سنة . ولم يحمل سلاطينها لقب «خليفة» كما فعل الفاطميون قبلهم . بل عادوا الى الاعتراف بخلافة العباسيين ببغداد .

وقد حكم بعضهم القطرين المصرى والسورى معا . وحكم البعض الآخر مصر أو سورية فقط .

وخلفهم المماليك التركمان والشراكسة .

صلاح الدين وريكاردوس

الأستاذ الدكتور
عبد العزيز زهام
رئيس قسم اللغة العربية
الأسبوع
الإسكندرية

لا يذكر اسم صلاح الدين الايوبى عادة الا ويذكر معه اسم خصمه ملك الانجليز ريكاردوس قلب الاسد . والاسمان ملازمان للحرب الصليبية الثالثة . وقد أسهب المؤرخون ، العرب منهم والافرنج على السواء ، فى وصف ما حدث بين البطلين فى خلال تلك الحرب مما نوجزه فيما يلى :

عدد الحروب الصليبية ثمانية . أثارتها كلها أوروبا . من سنة ١٠٩٦ الى سنة ١٢٧٠ للميلاد .

الحرب الاولى أسفرت عن اقامة دولة «أورشليم» فى فلسطين وبضع امارات فى الاراضى السورية ، فهى الوحيدة التى نجحت ، أما الحروب السبع التالية فقد انتهت كلها بالفشل ، وفقد الغربيون فى ختامها كل ما كانوا قد احتلوه من أماكن .

بدأت الحروب الصليبية «دينية» ثم انقلبت الى «سياسية» ومنها انبثقت الفكرة الاستعمارية .

لما اعتلى ريكاردوس العرش ، تبارى الفرسان بضرب السيف فى مهرجان قال فيه الملك : «سمعت أن أمهر من يضرب بالسيف هم العرب وسأذهب لمنازلتهم فى هذا المضمار » .

كان هذا فى سنة ١١٨٩ ميلادية الموافقة لسنة ٥٨٥ للهجرة ، وكان صلاح الدين الايوبى قد استرجع من الافرنج مدينة بيت المقدس فى العام السابق .

فتحالف ملك الانجليز ريكاردوس ، وملك الفرنسيين فيليب أوغسنت ، وامبراطور الجرمانيين فردريك بربروس ، وقرروا الزحف برا وبحرا على الارض المقدسة وعرفت حملتهم هذه بالحرب الصليبية الثالثة ...

مات فردريك غرقا فى نهر بآسيا الصغرى .

ونجح ريكاردوس وفيليب فى محاصرة مدينة «عكاء» والاستيلاء عليها ، فقفل فيليب عائدا الى بلاده ، وبقى ريكاردوس وحده وجها لوجه مع صلاح الدين الايوبى .

كل خصم من الاثنين جدير بالآخر .

كان السلطان فى الثانية والخمسين من العمر . والملك فى الثانية والثلاثين .

وفى خلال حصار عكاء سنة ١١٩١ ، ادرك صلاح الدين ان الخصم الذى اجتاز البحار وجاء لمنازلته فى قلب مملكته ليس كبقية رجال الحرب ، وانه جدير باللقب الذى اطلقه عليه مواطنوه «قلب الاسد» .

وادرك ايضا انه جلف غليظ اهوج ، شديد الاعتداد بنفسه ، سريع الاندفاع ، لا يقدر العواقب ولا يحسب حسابا للعقبات .

اراد ان يكسب وقتا بالتفاوض مع هذا الخصم العنيد . ليوقفه عند عكاء التى اقتحمها وأسر فيها نحو ثلاثة آلاف من خيرة الرماة والفرسان . ولكن ريكاردوس — بحجة أن صلاح الدين يماطل ويراوغ — أقدم على أول عمل من أعماله الهوجاء ، فذبح الاسرى عن آخرهم ، مخالفا فى ذلك تقاليد الحروب ومبادىء الانسانية !

وقال السلطان فى فورة غضبه : « ان الاسد لا يسفك دما الا اذا كان جائعا . اما الذئاب والضباع فهى التى تسفك الدم لمجرد القتل ! »

وقرر ان يقطع المفاوضات ويثأر للضحايا ...

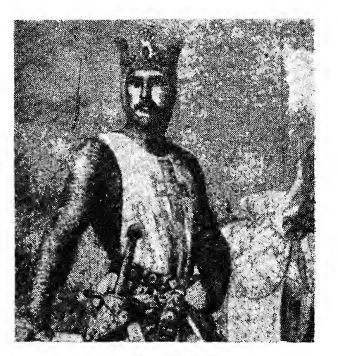
وبدأ الصراع الرهيب ، ونزل البطلان الى حلبة المباراة الرائعة !

ندم ريكاردوس على ما اقدم عليه فى عكاء من قسوة مخضبة بالدم ، ملوثة بالعار ، فراح يتفنن فى مجاراة خصمه فى ضروب الفروسية والمواقف النبيلة ، لكى يمحو ذلك العار ويزيل اثر تلك الدماء !

تتابعت المعارك على طول الساحل الفلسطينى ، فما كان فرسان ريكاردوس يصولون فيها صولة ، حتى يتبعهم فرسان صلاح الدين بجولة توازيها فى البطولة والاقدام

زحف ريكاردوس على « حيفا » ثم على « ارصوف » حيث اشتبك الفريقان فى معركة من اشد معارك الحروب الصليبية هولا ، فى السابع من شهر ايلول — سبتمبر ١١٩١ « ٥٨٧هـ » وكتب الفوز فى هذه المرة ايضا لقلب الاسد ..

وكان صلاح الدين قد وضع خطة « الارض الجرداء » فجعل رجاله يتراجعون أمام الغزاة ، ويقطعون فى طريقهم المياه ، ويردمون الابار ويحرقون الزرع . وكانت أعمال التحصين تجرى خلال ذلك على قدم وساق فى بيت المقدس ، الهدف الاخير للحملة الصليبية الثالثة



الملك ريكاردوس قلب الاسد
قائد الحملة الصليبية الثالثة
وخصم صلاح الدين الايوبى

دخل الصليبيون مدينة « عسقلان » فوجدوها خرابا ! وواصلوا الزحف فى المسالك المؤدية الى بيت المقدس خلال الجبـــال والوديان والتلال ، فاذا بهم يمرون فى صحراء خاوية خالية !

فى ليلة عيد الميلاد ، سنة ١١٩١ ، كانوا على مسافة عشرين كيلو مترا من المدينة المقدسة . ولم تقع أنظارهم على أحد من فرســـــان صـــــلاح الـــدين ...

وقفوا لاهثين ، حائرين ، مترددين ، واضطرب قلب الاســــد للمرة الاولى ، أدرك أن هناك خدعة حربية أعدها له خصمه ، فتشاور مع قواد جيشه ، واصروا هم على القيام بهجوم عام على أســــــوار القدس ، وارتأى هو ان الارتداد عنها والعودة الى الساحل خير واوفى!

وفى طريق العودة ، وافاه رسول من لدن السلطان يقول له :«لنعد الى التفاوض ووضع حد لهذه الحرب ، فقد اخذ الصـــليبيون بيت المقدس فى حملتهم الاولى ، لان ملوكنا وامراءنا كانوا متخاذلين مختلفين. أما اليوم فاننا نقابلكم صفا واحدا ولن تأخذوا بيت المقدس مرة ثانية!»

ورضى ريكاردوس بأن يدخل مع صلاح الدين فى مفاوضـــات . لعلها أعجب مفاوضات عرفها التاريخ : فقد قامت على فكرة انشـــاء دولة مسيحية عربية فى فلسطين ، تكون تابعة لسيادة الدولة الايوبية فى مصر والشام ، حتى اذا ما تم الصلح على هذا الاساس ، تبعـــه زواج يدعمه ، بين الملك العادل أخى صلاح الدين والامــيرة جان اخت ريكاردوس قلب الاسد !

وافق الملك ، ووافق السلطان ...

ولكن الاميرة رفضت ان تتزوج رجلا من غير دينها ، ورفض الملك العادل أن يخرج من دينه !

وتوقفت المفاوضات للمرة الثانية ...

وللمرة الثانية زحف ريكاردوس على بيت المقدس ، فى شـــهر حزيران — يونيو ١١٩٢ « ٥٨٨ هـ »

وللمرة الثانية أيضا وقف يشاهد الابراج والاسوار والحصون ، ويفكر ويتردد ، ثم يرفض الاصغاء لنصيحة قواده بأن يهاجم المدينـــة

وعاد ادراجه الى الساحل ..

لكى يستأنف الزحف مرة ثالثة فى الشهر التالى — تموز — يوليو ١١٩٢

ويقف أيضا الوقفة نفسها ، ليفكر ، ويتردد ، ويقرر العـــدول نهائيا عن مهاجمة المدينة المقدسة التى جاء من بلاده لاسترجاعها

ويتقهقر الى الساحل ، ليثبت فيه حكمه ، وينشىء فيــــــــه دولة جـــــديدة ..

منذ ذلك الوقت ، سلك صلاح الدين مسلكا آخر ، وغير خطتـــه الحربية ، بعد أن تم له استكمال وسائل الدفاع ووسائل الهجوم

عرض على خصمه استئناف المفاوضات مرة أخرى على اســـاس ان يرد ريكاردوس المدن التى استولى عليها ، ويحتفظ بعكاء فقط ، على أن تكون تابعة لسيادة السلطان

رفض ريكاردوس ، وانتقل صلاح الدين الى خطة الهجوم ، وبدات الجـولة الاخـيرة ..

فى شهر آب ــ اغسطس سنة ١١٩٢ ، اصطدم الفريقان فى مدينة يافا وحولها . وفى تلك المعركة التى استغرقت بضعة أيام وقع حادثان دلا على ما كان يكنه كل من الفـريقين من احترام وتقـدير للفــريق الآخـــــــر ...

حدث ان وثب أمير عربى على ريكاردوس قلب الاسد ، رافعـا سيفه ، فتفادى ريكاردوس الضربة ورد على خصمه بضربة من سـيفه شطر بها جسم الفارس العربى شطرين ، فتوقف القتال فجـــاة ، ورفع فرسان صلاح الدين سيوفهم وراحوا يهتفون للملك الانجليزى اعجابا بتلك الضربة الهائلة ، وضرب أمير عربى ضربة قطع بها عنق جواد انجليزى فوقف فرسان ريكاردوس يهتفون له ويهللون !

وحدث مرة اخرى أن قتل حصان ريكاردوس فأعطاه أحد رفاقه حصانا آخر قتل أيضا ، واخذ حصانا ثالثا من رفيق ثان فقتــل مثل الحصانين السابقين ، ووقف ريكاردوس على صخر يضرب بسيفه يمينا ويسارا وقد أحاط به أعداؤه . واذا بفارس من فرسان الملك العــادل يشق الصفوف نحوه . ويقدم له جوادين عربيين أصيلين قائلا له : «ان مولاى السلطان واخاه الملك العادل يرجوان منك قبول هذين الجوادين، لكى تواصل القتال وانت راكب ، لانه لايليق ببطل مثلك أن يحـــارب وهو واقف على قدميه ! »

بعد المعارك المتوالية ، التى لم يستطع فيها ريكاردوس قلب الاسد ان يحرز نصرا يمكنه من فرض الصلح الذى يريده على خصمه ، وبعد أن ادرك الملك ان طريق القدس لن تفتح امامه مرة اخرى ، وان الفــوز

النهائى لن يكون بجانبه قرر أن يعود الى مفاوضة صلاح الدين ، وأن يصل معه فى هذه المرة الى اتفاق يضع حدا لسفك الدماء

وفى الثانى من شهر أيلول — سبتمبر سنة ١١٩٢ ، تم عقد الصلح بين البطلين، وقد قال صلاح الدين ان ذلك الاتفاق هو صلح الاشراف ورضى بأن تفتح الطريق الى بيت المقدس ليسلكها الراغبون فى زيارتها من الحجاج النصارى من الشرق جاءوا أو من الغرب وتعهد ريكاردوس ، باسمه وبالنيابة عن قومه ، بأن يحترم نصوص الاتفاق ولا يستأنف القتال . وان يرحل بجيشه عن ارض فلسطين . ويعيد بعض المدن التى استولى عليها ، ويحتفظ ببعضها للامراء النصارى الذين كانوا فيها قبلا .

على تلك الصورة انتهت الحرب الصليبية الثالثة ، التى بدأ بها امبراطور وملكان ،وواصل القتال فيها ملك الانجليز وحده . .

وكان بعضهم قد همس فى اذن ريكاردوس ان صلاح الدين الايوبى يحاول ان ينال منه بغير السلاح الشريف . وانه يسعى الى دس السم له فى الطعام ، بواسطة خونة من رجاله الانجليز .

وحدث مرة فى خلال هدنة اتفق عليها الفريقان . ان مرض ريكاردوس واشتدت عليه وطاة الالام ، فقيل له ذات يوم ان طبيبا عربيا وصل الى المعسكر ويرغب فى المثول بين يديه .

دخل الطبيب وفحص المريض واعطاه دواء شربه ريكاردوس فى الحال . واذا بالطبيب يكشف عن شخصيته :

« أنا صلاح الدين يا ريكاردوس ! ولو كنت اضمر لك شرا وارغب فى دس السم لك ، لفعلت هذا الان ! ولكننا لا نغتال غدرا ، ولا نقتل الا فى ساحات الحرب ! » .

ولما شفى ريكاردوس ، رد الزيارة لصلاح الدين شاكرا ، فقدم له السلطان « شراب الورد » المثلج ، وعرف الغربيون منذ ذلك الوقت ما هى « الشربات » ويسمونها « سوربى » .

وعرفوا من ضروب الفروسية ، والشهامة ،والوفاء ، والنبل ، واكرام الضيف ، ما كانوا يجهلون !



حدث في سنة ٥٧٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٢ للميلاد ، أن الافرنج في بيروت — المدينة الجاثمة على ساحل لبنان— فتكوا بقـافلة كانت تحمـل الارزاق والاسـلحة الى يوسف صـلاح الدين الايوبي ، فهـاج هائج السـلطان ، وثار ثائره ، وعزم على الانتقام من المعتدين ، والاستيلاء على المدينة البحرية وضمها الى املاكه .

وكان الامر قد استتب له فقبض على زمام السلطة في الاقطار المصرية والشامية ، وجعل يهاجم ، الواحد بعد الآخر ، الحصون والمعاقل الباقية في قبضة الافرنج ، تمهيدا للاستيلاء على بيت المقـدس ، حيث كان يقيم الملك بلدوين الرابع . على راس الدولة التي أسسها الصليبيون هناك .

سنحت له الفرصة للاستيلاء على بيروت . فاغتنمها ، وسار اليها بفريق من ابطاله ، فغزا برها ، وكان اخوه « العادل » قد أرسـل اليه من مصر ثلاثين مركبا فسار الى دارا وعسـقلان وغزاهما وخربهما ثم عاد الى بيروت وهاجمها من جديد ..

لكن ملك القدس ، بلدوين الرابع ، أسرع الى نجـدة المدينة ، فحارب صلاح الدين واضطره الى العودة على اعقابه . . .

وتوالت المعارك وتتـابعت منذ ذلك الوقت بين الفريقـين ، وكان صلاح الدين قد غادر القاهرة على الا يعود اليها الا بعد ان يرفع اعلامه على المدن والقلاع الشـامية جميعها ، سواء أكانت خاضـعة للافرنج او لسـواهم من أمراء العرب ، فتطاحن الابطال في الميـادين ، من حلب الشهباء الى صحراء سيناء الى واحة دمشق الى بادية الشام ..

***

في سنة ٥٧٩ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٣ للميلاد ، كان صـلاح الدين قد أخذ قلعة حلب عنوة ، واسـتولى على تلك المدينة وطرد منها اميرها ، فرجع بعد ذلك الى الجنوب ، وعبر نهر الاردن بجيشه ، واحرق بيسان ، وتوغل في ذلك الوعر متجها الى حصن من حصـون الافرنج الحصينة ، ومعقل من معاقلهم المنيعة ، لاقامة الحصار عليه، وانتزاعه من أصـحابه .

ذلك الحصن الحصين ، والمعقل المنيع ، هو مدينة « الكرك » بأسوارها وآجامها وصخورها . مدينة الكرك ، الصغيرة بحجمها ، الكبيرة بأسمها ،

الرابضة فى وسط الجبال والهضاب ، بحاميتها الشجاعة ، تتحدى الغزاة والمهاجمين ، وتصدهم عنها خائبين .

طلب صلاح الدين الى اخيه العادل ان يمده بنجدة قوية من جيوشه المصرية ، فلبى العادل النداء ، وسير الى الكرك جيشا عظيما ، التحق به هناك رجال صلاح الدين . ونصب العرب المجانيق حول المدينة ،واقاموا عليها كمينا من جميع الجهات .

وكان ذلك فى شهر تشرين الثانى — نوفمبر من تلك السنة

هجم العرب على الاسوار والابراج مرة بعد مرة ، دون ان يتمكنوا من اقتحامها أو احداث ثغرة فيها أو هدم ركن منها .

ذلك لان الافرنج كانوا قد احتاطوا للامر ، فجلبوا من الاقطاعات التابعة لهم ما استطاعوا جلبه من رجال الحرب والذخيرة والعتاد ، فصمدوا للمهاجمين ، واثقين ان الغلبة ستكون لهم فى النهاية ، وان السلطان سيضطر الى رفع الحصار والابتعاد عن مدينتهم ،بعد أن يشعر بعجزه عن الاستيلاء عليها .

***

لنترك الجنود والقواد فى حومة القتال ولننتقل الى داخل الاسوار ، ونتجه الى ناحية معينة ، الى برج من الابراج المشرفة على الهضاب ، حيث نرى حركة غير عادية ،وجلبة غير جلبة الجند فى مجالسهم ومعسكراتهم .

فى ذلك البرج اناس يروحون ويجيئون ، بينهم الرجال والنساء والاطفال . هذا يحمل ازهارا ، وذلك يحمل شموعا مضاءة ، وتلك تضم بين يديها مجموعة من الشرائط الملونة وبين الجماعة ايضا رهبان يسرعون وفى أيديهم المنابح والمباخر ، وجيش من الخدم ينقل من مكان الى مكان الاطباق والدنان المملوءة بأنواع الطعام والخمور .

وعلى جميع الوجوه يطفح السرور ، لكن الابتسامة تمتزج من وقت الى آخر بشىء من المرارة . . .

فى داخل القلعة المحاصرة ، يستعد الافرنج لاقامة الافراح ، احتفالا بزواج عريس وعروس من الاشراف .

ومن اعلى برج من الابراج ، وقفت « اتيانات » أميرة شرق الاردن ، وزوجة صاحب القلعة ، وأرسلت نظرها الى أبعدما تستطيع فى الوعر الذى ضرب فيه المسلمون مضاربهم ، بألوانها الزاهية .

انها تمتد من أسفل الاسوار الى الافق البعيد ، تلك المضارب .

واشعة الشمس تنعكس على اسنة الرماح المغروسة عند ابوابها ، وعلى الدروع الملقاة على الارض حولها .

انها هنا ، تلك المضارب ، باطنابها الملاصقة للابراج ، تتحدى قلعة « الكرك » الحصينة : لقد جاء صلاح الدين ، سـلطان الديار المصرية والشامية ، بجيشه اللجب ، واقام الحصار على « صخرة الصحراء » كما كان الناس يسمون الحصن الهائل ، بغية الاستيلاء على ذلك المعقل الذى كان الصليبيون يسيطرون منه على طرق سورية ومواصلاتها .

صلاح الدين ! انها تعرفه . وتعرف مبلغ حقـده على زوجها ، رينودى شاتيون ، الشرس اذا ما ذكرت الشراسة ، القاسى اذا ما ذكرت القسوة ، وتعرف اتيانات ايضاان ذلك الزوج هو الذى جلبعلى امارته الويلات ، وعلى مملكة اورشليم الكوارث ، باعماله الطائشةالمجرمة .

لقد أعتصم فى قلعة الكرك ، وجعل يرقب القوافل فى روحاتهـا وغدواتها ، وينقض عليها ، فيسلبها احمالها ، ويذبح رجالها ، وينحدر بشجاعته وشرفه الى مصاف اللصوص قطاع الطرق !

عنـدما وقع اختيار الاميرة اتيانات على الامير رينو زوجالهاعلى أثر وفاة زوجها الاول الكونت دى ميلى ، كانت معجبة بأقدامـه وقوته وفروسيته ، فوضعت حياتها وحياة ابنها « هومفروا » فى حماية سيفه البتار ، وأعطته امارة شرق الاردن وحصن الكرك ، مؤملة فىمستقبل غير هذا ، راجية للرجل الذى اختارته مهمة غير هذه !

كانت تعلل النفس بأن يكون رينو فخر الدولة الصـليبية وحامى ذمارهـا !

أممكن ان يكون هو ، هو نفسه ، رينودى شاتيون ، الذى يثيربأعماله الفاضحة هذه العاصفة على امارته ؟

تنهدت اتيانات واستسلمت للاحلام !

نعم أنها تعرف صلاح الدين الذى يحاصر القلعة ويضيق عليها الخناق . . .

لقد كان أسيرا فى قصر ابيها ، وهى شابة فى السادسـة عشرة من العمر . . .

تذكرت يوم زفافها الاول . .

أقام الافرنج فى ذلك اليوم مهرجانا دعوا فيه فرسان العرب الى مباراة علىظهور الجياد ،اشترك فيها صلاح الدين وخرجمنها ظافرا . . .

جاء بالجائزة التى ربحها ، والقاها على قدمى اتيانات ، وانشدها أبياتا لشاعر عربى !

وشعرت الفتاة النبيلة بنظرات الفارس الشجاع تكتنفها من كل ناحية ، وخيل اليها أن فى تلك النظرات شيئا من العطف والاسى !

تذكرت اتيانات كل ذلك . وتذكرت ايضا ان السلطان صلاح الدين شهم كريم ، وأنه يميل بعد الطعن والضرب فى الميادين الى سماع تغريد الاشعار وخرير المياه فى ظلال الاشجار ، وانه يقضى ساعات طويلة مغمض العينين ، بين الوسائد الحريرية ، يصغى الى اوتار الاعواد ..

وابتعدت اتيانات فجأة عن المكان الذى كانت تنظر منه الى خيام العرب !

واتجهت الى المكان الذى كان القوم يستعدون فيه لاقامة الافراح!

***

لقد اعتزمت اتيانات أمرا ! . . انها تفكر فى ان يشاركها صلاح الدين فى سعادتها ، بمناسبة زواج أبنها ..

أنها تحب ذلك الابن الوحيد ، هومفروا ، حبا افرغت فيه كل ما يحويه قلبها من عاطفة بعد وفاة زوجها الاول ، وبعد أن خاب أملها فى زوجها الثانى . . .

وقد أختارت للابن الحبيب عروسا من بيئته ،هى اليزابيث،ابنة اموری ملك القدس .

مات الملك فتزوج رينودى شاتيون الملكة الارملة ، وتبنى الطفلة اليزابيث ، فعاشت فى كنفه ...

وماتت أمها . . .

وتلفت رينو حوله باحثا عن زوجة ثانية ، فى الوقت الذى كانت فيه اتيانات زوجة الكونت دىميلى ، تتلفت ايضا حولها باحثة عن زوج ثان ، بعد وفاة الكونت ...

وهكذا جمعت الصدف بين الارمل والارملة ، فوجد رينو ضالته المنشودة ، ووجدت اتيانات الرجل القوى الذى كانت فى حاجة اليه .

وكبر الطفلان معا ، جنبا الى جنب ، هو مفروا يتيم الاب ، واليزابيث يتيمة الابوين .

ورأت اتيانات أن تربط بينهما برابطة الزواج ، ووافقها رينو على

ذلك ، واعلنت فى حصون الصليبيين خطبة هومفروا بن اتيانات على اليزابيث ربيبة رينو .

وتحدد موعد الزواج ، ومكانه .

وشاءت الصدف ايضا أن يكون المكان ، فى ذلك الموعد بالذات ، محفوفا بالخطر ، بسبب الحصار الذى ضربه صلاح الدين على قلعة الكرك ، لينتقم من عدوه رينودى شاتيون ...

***

قبيل غروب الشمس ، فتح باب من ابواب الكرك ، والقى المعبر على الخندق المحيط بالإسوار ، فاجتازه أربعون من الرجال والغلمان ، حاملين على اكتافهم ورؤوسهم آنية واطباقا كثيرة ، متجهين الى معسكر العرب ، وامامهم فارس فى عدة حربه ، ممتطيا جواده ، رافعا بيمناه علما ابيض اللون ناصعا ...

طلب الفارس من الحراس ان يذهبوا به الى صلاح الدين الايوبى ، فاجابوه الى طلبه . وأمر السلطان بادخاله عليه فى مضربه ، ولما مثل الفارس الافرنجى بين يديه خاطبه قائلا :

ــ أيها المولى . أوفدتنى اليك الاميرة « اتيانات » والدة الامير هومفروا دى تورون ، الذى نحتفل اليوم بقرانه،وعهدت الى بأن ابلغك رسالة املتها على وان اضع بين يديك هذه الهدايا التى يحملها رجالى.

فارتسمت على وجه صلاح الدين امارات الغبطة ، ودعا الرسول الى الجلوس ، وقال بصوت متهدج ..

ــ اننى اذكر اتيانات ولا انساها . واذا كنت آسف لشىء اليوم ، فلاننى أقيم الحصار على الحصن الذى تأوى اليه ، ولكن زوجها هو السبب !

وطلب السلطان من الرسول أن يفضى اليه برسالته . فقال الرجل:

« ايها السلطان العظيم . تقول لك الاميرة اتيانات : يعم الابتهاج الليلة مدينتنا الصغيرة ، ونحتفل بزواج ولدى هومفروا ، ولكننى أبيت الا أن يكون لك نصيب فى افراحنا ياصلاح الدين . الا تذكر اياما كنت فيها سجينا فى قصورنا ، تلعب مع الطفلة اتيانات ، وتطوف معها الحدائق والبساتين ؟ لقد كبرت اتيانات يا يوسف ، وتزوجت ،ورزقت ولدا هو اليوم سيد قومه ، ولاشك فى انك سوف تحبه لو رايته كما كنت تحب امه وهى صغيرة ، لأنه جميل وشجاع مقدام ، جدير بحبك وعطفك واعجابك ياصلاح الدين ، وقد حملت أربعين من رجاله وغلمانه

نصف ما أعددناه لحفلة الليلة من طعام وشراب هدية لرجالك وغلمانك.
فاشتركوا معنا باعقبان الميادين فى هذا الاحتفال العظيم والعيد الكبير.
واذكر دائما بالخير ياسلطان العــرب ، تلك التى عرفتهـا طفلة والتى لم تشك لحظة واحدة فى ان الرجل الخامل الذى كنته ، سوف يصـبح فى المستقبل فى عداد الابطال البواسل وتقبل تحية الوداد والاعتراف لك بالنبل من صديقتك الصغيرة بالامس الكبيرة اليوم »

سكت الغريب . واجاب صلاح الدين :

« أيها الرسول الافرنجى

« عد الى مولاتك اتيـانات وقل لها ان يوسف صـلاح الدين لايزال يذكر تلك الايام التى قضاها فى الاسر ، متنقلا بين قصور الافرنج وأبراجهم وحصونهم ، وانه لاينسى مادامت الحياة تدب فيه أن تلك الطفلة التى أحبها واحاطها بالعطف كانت تبعث فى نفسه الامل والرجاء ، وتدفع عنه بابتسامتها الحلوة ، ومداعباتها اللطيفة ، شبح اليأس والضعف والقنوط!
قل لها اننى أحفظ لها جميل الذكرى ، وآمل ان يكون شأنها معى كشأنى معها . اننى أتقبل هديتها ، وسأوزع محتويات هـذه الاطباق والانية على رجالى وغلمانى ، لكى يشاركوا الافرنج الليلة فى أفراحهم ، ويأخذوا نصيبهم من وليمة العرس . ولتكن اتيانات واثقـة ان القتـال سيتوقف الليلة وغدا وبعد غد . فان رجالى لن يقتربوا من البرج الذى تقـام فيه حفلة الزفاف ، ولن يزعجوا العروسين وذويهما بصياحهم وضجيجهم وقعقعة أسلحتهم . فاذهب . واحمـل الى مولاتك العزيزة الشريفة ، اعطر تحية واطيب سلام من صلاح الدين ، صديقها بالامس ، وصديقها اليـوم ! »

وعاد الرسول من حيث أتى . وصحبه اثنان من رجال صـلاح الدين : واحد يحمل صندوقا صغيرا فيه جواهر وعطور . وواحـد يقود جوادا أصيلا ..
الجواهر والعطور هدية السلطان الى العروس اليزابيث . والجواد الاصيل هديته الى العريس هومفروا

وأصدر صلاح الدين أمره الى القواد والجنود فأوقفوا القتـال ، وشهدت أسوار الكرك وسهولها وآكامها فى تلك الليلة مشهدا لم تدون صفحات التاريخ مثله فى جميع العصور : جيشا يتوقف عن مهـاجمة قلاع يحاصرها منذ أسابيع ، ويشترك فى افراح يقيمها عدوه المحـاصر داخل الاسـوار !

هذا ماحدث مرة واحدة فى التاريخ ، بأمر من يوسف صلاح الدين

الايوبى ، سلطان الديار المصرية والشامية ، اكراما لصديقته الافرنجية اتيانات ، فى شهر تشرين الثانى ـ نوفمبر من سنة ١١٨٣ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٧٩ للهجرة !

***

لم يسقط الحصن فى تلك السنة بأيدى المسلمين ، لان رينو ارسل يطلب النجدة من ملك بيت المقدس ، جى دى لوسينيان ، فلبى الملك النداء وزحف على الكرك بجيش عظيم ، فاضطر صلاح الدين الى رفع الحصار امام ذلك العدو الكثير العدد .

لكنه عاد الى محاصرة القلعة فى السنة التالية ، وكانت النساء قد غادرن المكان والتجأن الى أسوار أورشليم ، ولم يبق فى الكرك غير الرجال ، وقد استعدوا للقتال مستميتين .

وهاجم صلاح الدين القلعة برجاله ، وما اسدل الليل ستره على الارض حتى كان المسلمون قد اقتحموا تلك الاسوار المنيعة، وانتشروا فى داخلها ، ورفعوا أعلامهم على أبراجها .

واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين ، فى مختلف الميادين ..

وبعد سقوط الكرك بأقل من أربعة أعوام ، هزم صلاح الدين جيوش الافرنج فى معركة حطين ، وأسر ملكهم وامراءهم ، وقتل بيده الكونت رينو دى شاتيون ، زوج اتيانات ، الاميرة التى عرفها صغيرة ..

كانت اتيانات فى بيت المقدس مع النساء الاخريات ، تنتظر مرتعدة خائفة نتيجة المعركة الحاسمة .

وانبعثت من صدرها صرخة الم وحسرة ، عندما حمل اليها الرسول الخبر المفجع ،فعلمت أن ابنها وقع فى الاسر ، وأن السلطان صلاح الدين الايوبى قد نحر زوجها رينو نحراً بضربة من خنجره !

بكت اتيانات . ثم ارتدت ثوب الحداد الذى ترتديه الارامل ،وذهبت الى الكنيسة حيث ركعت تصلى ، وتتصفح قلبها ..

بكت لانها شعرت فى وقت من الاوقات بأنها تكره زوجها !

بكت لأنها لم تكن تحب زوجها كما يجب أن تحبه !

بكت لأنها تركت لأفكارها العنان فانطلقت تلك الافكار الى رجل آخر ..

بكت لأن ذلك الرجل الآخر هو الذى قتل زوجها بخنجره !

دخل السلطان يوسف صلاح الدين الايوبى بيت المقدس على راس جيشه المظفر وخضعت له المملكة الافرنجية من صحراء الكرك الى ساحل البحر الابيض .

وجيء اليه بالاسرى والسبايا ، وكانت اتيانات بينهم !

وقفت أمامه بين جنديين من جنوده جامدة ، لاتبدى حراكا ،ناظرة الى الارض .

ووقف صلاح الدين يرمقها بنظرة ملؤها الحزن والحسرة !

ماذا ينتظر منها غير العداء والكره والاشمئزاز ؟

اما قتل زوجها ؟ اما أسر ابنها ؟ انه يعرف نساء الافرنج وماطبعن عليه من كبرياء وانفة واباء !

لا .. لاينتظر صلاح الدين من اتيانات شيئا !

أمر باحضار الابن الشاب فجيء به اليه ، وعندما وقف هومفروا امام امه ، اخذه صلاح الدين بيده وقال للاميرة الافرنجية :

ــ انبى أعيد اليك ولدك . فارحلى به وبزوجته ، انكم أحرار !

واراد أن يضيف على ذلك أن صورة الاميرة المحبوبة ستظل مطبوعة على صفحات قلبه وان فكره سيتبعها أينما سارت وحلت ،. لكنه لم يجرؤ على ذلك !

وضع السلطان تحت تصرف الاميرة وابنها وزوجته كوكبة من فرسانه لمرافقتهم الى حيث يريدون ..

وظل صلاح الدين واقفا . فركبت الاميرة اتيانات فرسها البيضاء ، وابتعدت بعد أن القت نظرة أخيرة على الرجل الذى قامت بينها وبينه عاطفة هى أقوى من المحبة ، وأضعف من الحب ! ..

ونظر اليها السلطان صامتا !..

ثم رفع يده لتحية الاميرة الافرنجية ، وعاد الى الاهتمام بما هو اعظم شأنا من امرأة جميلة تبتعد على صهوة فرس بيضاء !


عرس
في حماة

وصل الرسول الى مضارب العشيرة فاذا به يجد القوم فى شغل شاغل عن الحوادث الجسام التى كانت الديار الشامية ميدانا لها، فى تلك الحقبة المضطربة من تاريخها ، انهم يدقون الاوتاد وينصبون خيمة حاكتها نساء الحى من وبر الابل ، وينظفون القصاع والصحاف والقوارير، ويخلطون فى الاجران التوابل والمساحيق ، ويجددون سروج الخيـل ، ويجلون النصال والرماح ..

ان العشيرة تعد العدة لاقامة الافراح ، احتفالا بزواج أعز عريس واجمل عروس فى مضارب الحى : عودة بن فالح ومسعودة البدوية ..

غير ان ذلك الرسول كان قد جاء ليحث القوم على التأهب للحرب! .. انه موفد من الامير سيف الدين بن المشطوب ، ليقول لعميد العشـيرة وحكيمها ، الشيخ فالح الملقب بأبى الخيل : : « يافالح ! لقـد هاجم الاعداء مدينتى حمص وحماه ، حيث لك أخوان وأهل تربطك بهم رابطة الرحم . وسأسير غدا او بعد غد لنجدة حماه ورفع الحصار عنها ، فهل لك ان تلتحق مع فرسانك بالكتائب الزاحفة تحت قيادتى ، لتشـاركنا فى مخاطر القتال ، ومفاخر النصر ، وأسلاب المعركة ؟ »

لم يتردد « فالح أبو الخيل » ولم يستشر احدا من بنى قومه ، بل أجاب على الفور : «قل لسيف الدين اننى لها .. وليكن لقاؤنا بعـد يومين ، عند مخاضة الصفصاف ، على نهر العاصى ! »

وعاد الرسول ادراجه ، حاملا الى الامير الذى أوفده ، جواب صديقه البـدوى ..

كان الشيخ فالح من أشهر مروضى الخيل فى زمانه . نزح جده من نجد واستقر فى بادية الشام ، وورث هو عنه وعن أبيه معرفتهما الواسعة فى أصول الجياد . فاشتهر وذاع صيته . وناداه مرة السلطان نورالدين محمود بن زنكى «يا ابا الخيل» فاصبح ذلك الاسم لقبا لازمه وأطلقـه عليه النـاس .

واما العشيرة التى التفت حول الشيخ فالح ، فلم تكن فى الواقع غير مجموعة من الاسر البـدوية والحضرية ، هام افرادها بحب الخيـل وانصرفوا الى هواية تربيتها ، وترويضها ، فتألفت منهم تلك العشـيرة التى خضعت للشيخ فالح والقت بين يديه قيادها ، فاتخذ لهـا الرجل مقرا عند أطراف البادية ، على مقربة من مشارف نهر العاصى .

خرج فالح ذات يوم فى رحلة تجارية الى مدينة بعلبك ، وعاد منهـا ومعه طفلة يتيمة ماتت أمها وقتل أبوها فى معركة مع الصليبيين ، وتبنى الشيخ الطيب تلك الطفــلة التى نشــأت وترعرعت فى كنفه ، مع ابنه الوحيــد « عودة » وفى رعاية زوجتــه « ســاطعة » وسميت اليتيمة « مسعودة البدوية » .

ولما بلغت الرابعة عشرة من العمر ، كان عودة قد جاوز الســابعة عشرة ، فأفضى الى أبيه برغبته فى اتخاذ الصبية زوجة له . ولم يمــانع فالح ، ورضيت الام برغبة وحيدها ، وانصرفت العشيرة برجالهاونسائها الى اعداد العدة للعرس الذى كان فى الواقع عرسا للعشيرة كلها ..

وشاءت الاقدار أن تغير مجرى الامور ، وان يمتطى الرجال متــون خيولهم للذهاب الى الحرب لا للقيــام بألعاب الفروســية ، وأن تنطلق الأهازيج والزغاريد من أفواه النساء ، لاذكاء « الحماسة » فى الصدور، لا لتحية العروس فى هودجها ، ومصاحبتها الى خدرها ...

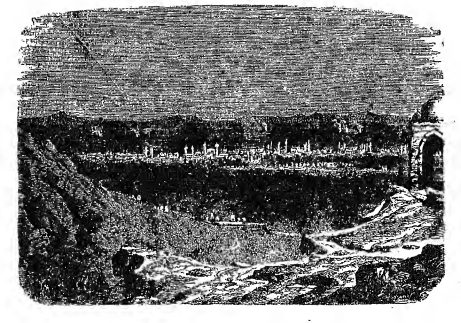
● نحن فى سنة ٥٧٣ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٧٧ للميلاد .

مات الملك العادل نور الدين محمود ، سلطان الديار الشامية، واسرع صلاح الدين الايوبى من القاهرة الى دمشق ، وشرع فى الاستيلاء على السلطة ، وتوحيد القطرين فى دولة واحدة متماسكة الاطراف والاجزاء، ونادى بنفسه سلطانا بعد أن خضعت له المدن السورية الكبيرة ،دمشق وحمص وحماه وحلب، واخذ من الخليفة العباسى فى بغداد اعترافابلقبه وسلطته ، ومضى فى اخضاع البقية الباقية من الامراء والاقيال المتمردين، وفى التأهب للاقاة الجيــوش الصليبية التى بدأت تتحــرك للتوغل فى داخل البــلاد .

تحالف الافرنج مع الروم البيزنطيين ، وهاجموا دمشــق واخذوها عنوة ولكن صلاح الدين استرجعها منهم وعين فيها أخاه شمس الدولة تورانشاه نائبا عنه ، وولى على مدينة حمص ابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وعلى مدينة حماه خاله شهاب الدين محمود . وعاد الى مصر لتنظيم شئونها ، ودفــع خطر الغزو عنها ، لما بلغه أن الخلفــاء الصليبيين والبيزنطيين يستعدون لمداهمة سواحلها من البحر .

لكن الخلاف دب بينهم ، فباءت حملتهم البحرية بالفشل ، واغتنم بعض امرائهم فرصة غياب السلطان عن سورية ، ووجهوا أنظارهم الى مدنها وحصــونها .

وفى شتاء سنة ١١٧٧ ، حشد الافرنج جيشا كثير العدد وافر العدة،



تحالف الافرنج والبيزنطيون وهاجموا دمشق واخذوها عنوة ، لكن
صلاح الدين استرجعها منهم واتخذها مقرا لملكه

فى مدينة طرابلس فى سفوح لبنان ، وزحفوا به وهدفهم حمص وحماه .. ووثبوا على حمص ..

خرب المعتدون القرى والمزارع ، واضرموا فيها النـــار ، وأسروا الفلاحين فى حقولهم ، وضربوا الحصار حول حماه ، وارسلوا الى طرابلس قوافل من البغال والجمال ، تحمل ألاسلاب والاسرى .

لكن ناصر الدين محمد بن شيركوه ، حاكم حمص ، طارد القوافل على رأس حامية المدينة ، وادركهم فى منتصف الطريق ، واسترجع من الافرنج من اسروه وما سلبوه ، واستحوذ على القوافل والقائمين على حراستها ، وعاد الى مدينته ، وانصرف الى تحصين مواقعها وتنظيم الدفاع عنهـا .

غير ان الجيش الصليبى ، بعد أن اجتاح الحقول والمروج والقرى حول مدينة حمص ، لم يتوقف لحصارها ، بل واصل زحفه شـمالا ، والتحق بالقوة التى سبقته الى مدينة حماه وحاصرتها ..

كان حاكمها ، الامير شهاب الدين محمود ضعيفا مريضا ، لا يقوى على الحراك ، ولا يستطيع مواجهة الخطر الداهم بما تقتضيه الحالة من عزم ونشاط . ولم يكن بوسع جاره ناصر الدين أن ينجده ، خوفا من أن يكشف مدينته لهجوم فجائى من العدو . فبعث شهاب الدين الى نائب السلطان فى دمشق ، تورانشاه الايوبى ، يطلب منـه ان يوافيه بالنجدة لانقاذ المدينة من السقوط ، وسكانها من الذبح والاسر ..

ولم يفعل تورانشاه شيئا مما كان الواجب يحتم عليه ان يفعله . بل انه لم يدرك مدى الخطر الذى يهدد المدينتين حمص وحماه ، والذى سوف يمتد بعدهما الى دمشق نفسها .

لم يكن تورانشاه يتصف بأخلاق مماثلة لاخلاق اخيه صلاح الدين . بل كان ضعيف الارادة ميالا الى المرح وملذات الحياة . وقد ادرك واحد من تابعيه ، الامير سيف الدين بن المشطوب ، ماقد يترتب على مسلك رئيسه من عواقب وخيمة ، فقرر من تلقاء نفسه أن يقدم حيث احجم تورانشاه ، وان يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن حماه وانقاذها ، شاء تورانشاه أم أبى !

اوفد سيف الدين رسله الى الحواضر والبوادى ، واستنفر الرجال واستنهض الهمم ، فهرع الفرسان اليه من كل صوب ، وراح يحشد جموعهم فى السهول والنجاد ، أو يتواعد معهم على اللقاء فى الطريق ، ليقودهم فى الزحف الى الشمال ...

واقسم ابن المشطوب على أن يقذف بالافرنج الى الغرب ، ويطهر منهم وادى العاصى

كان الشيخ فالح ابو الخيل في انتظار سيف الدين بن المشطوب حسب وعده ، عند مخاضة الصفصاف ، على ضفاف النهر ..

فقد تشاور مع كبار العشيرة وصغارها ، بعد رحيل الرسول ، فوافقوا جميعا على تأجيل العرس الذى كانوا يتأهبون لاقامته، وتلبية الدعوة التى وجهت اليهم للاشتراك فى الحرب ..

وأبت النساء الا أن يرافقن الرجال ، جريا على عادتهن ، كلما خرج ازواجهن أو اخوتهن أو أبناؤهن فى غزوة بعيداً على مقر العشيرة ،

بقى فى الحى خمسة رجال أقعدتهم الشيخوخة عن المسير .وخمس نساء لرعاية الاطفال ، مع « ساطعة » زوجة سيد العشيرة ، وثلاثة شبان لحراسة المضارب والماشية . ومشى الباقون بقيادة الشيخ «فالح ابو الخيل» ، على ظهور خيرة جيادهم المطهمة ، وعلى أنغام المزمار وقرع الطبول وانشاد الاهازيج ..

وكان خلف فالح ابنه عوده وعروسه مسعودة !.. وقالت الصبية وقد كحلت عينيها وتقلدت سيفها :

ــ حماه !.. هل تعدنا بأن نعود الى ربعنا بعد النصر ، ونحتفل بعرسنا ، وندعو اليه القائد الذى لبينت نداءه ، وسرت الآن الى لقائه ؟

فأجاب فالح بلهجة الواثق مما يقول :

ــ نعم يامسعودة .. اعدك .. ولكننى سأقيم لك ولعودة عرسا فى حماه ، لم تشهد المدينة مثيلا له ! وسنرجع منها الى حينا ومضاربنا ، فى زفة لم تشهد هذه الربوع ايضا مثيلا لها !

وعند المخاضة ، التحق فالح وعشيرته بالجيش الزاحف ..سبعون فارسا وفارسة ، رحب بهم سيف الدين بن المشطوب وشكرهم على حماستهم فى تلبية دعوته ..

فوجيء الافرنج بوصول تلك النجدة الى الحامية المدافعة عن المدينة . ووجدوا أنفسهم بين نارين . وتضعضعت صفوفهم . ودارت رحى المعارك أربعة أيام بلياليها . وواجه الاغراب سيلا من السهام يتساقط عليهم من وراء المعاقل التى اقامها المدافعون عن حماه، وضربات متوالية من كتائب الفرسان الدائرة حولهم فى الخارج ، وكان سيف الدين فى خلال ذلك القتال الرهيب ، يدخل المدينة ويخرج منها بلا انقطاع ، يقود هجوم الفرسان الذين جاءوا معه من مختلف الجهات ، ودفاع الصامدين وراء المعاقل بقيادة زعماء الاحياء .. وما غربت شمس اليوم الرابع ، حتى كان الافرنج قد رفعوا الحصار ، وتراجعوا ، ثم انسحبوا فى ظلام الليل !

وكتب النصر لسيف الدين بن المشطوب ، وبكى شهاب الدين محمود، حاكم المدينة ، من الفرح ، وهو يعانق البطل الذى أنجده ودفع عنه عار الهزيمة .

دفن سكان حماه شهداء المعركة فى ظاهر مدينتهم . واقاموا على ارواحهم الصلوات .

وكان بين الشهداء اربعة من رجال الشيخ فالح أبى الخيل ، اراد الرجل ان يعود بهم الى ربع العشيرة ليدفنهم فى سفح الجبل فأبى شهاب الدين وزعماء الاحياء الا أن يدفنوهم مع غيرهم ممن سقطوا فى الميدان لكى يبقى التل الذى واراهم فى ترابه ، محجة للناس من بعدهم ..

وبعد سبعة أيام من احراز النصر ، أقام الشيخ فالح ابو الخيل ، عملا بوعده ، حفلة العرس التى تأجلت قبل ذلك ببضعة أيام . واشترك سكان حماه فى تلك الافراح ، ابتهاجا بالنصر من ناحية ، واعرابا منهم عن عرفان الجميل ، نحو العشيرة الباسلة التى خفت اليهم وقت الشدة

وكان العرس من الروعة بحيث لم تكن المدينة قد شهدت مثله من قبل ، فتحقق للشيخ فالح ماوعد به العروس وهى فى طريقها معه الى حماه ..

وخرج موكب العرس من المدينة ، يتقدمه هودج يحمل مسعودة البدوية ، وخلفه عودة بن فالح على صهوة جواده ، ويحف به ويتبعه مئات من الفرسان ، فكانت زفة لم تشهد تلك الربوع مثيلا لها ، كما وعد فالح أيضا عروس العشيرة الجميلة !

واخترق الموكب حدائق حماه وبساتينها ، وانساب على طول مجرى النهر ، بين نواعير العاصى التى اختلط صريرها بغناء النساء وزغاريدهن.

وفى مضارب الحى ، ظل القوم ومن جاء معهم من حماه ، فى فرح ومرح ، سبعة أيام كاملة ، تسابق فيها الفرسان ، وتبارى الابطال فى ضرب السيف ورشق السهام والجريد والرماح ..

وهكذا بر فالح بوعده لربيبته مسعودة . وبر سيف الدين بقسمه، فأنقذ حماه ، وقذف بالافرنج الى الغرب ، وطهر منهم وادى العاصى.


كرباج السلطان

جمع السلطان صلاح الدين الايوبي حوله البقية الباقية من فرسان حرسه ، وليس بينهم واحد لم تترك المعركة في جسمه أثرا ، وقال لهم بصوت لم تنل منه مرارة الهزيمة :

ــ لقد خسرنا هذه المعركة ، ولم افهم بعد كيف خسرناها .. لكننا سنعد العدة للثأر ، وســـــوف يكون انتقـــامنا رهيبـــا .. فلنعـــد الان الى منازلنـــا .. والله معنا ..

وانطلق الفـــرســـان يخترقـــون صـــحراء سيناء . في طريقهم الى مصر ...

كانت معركة ــ تل جازر ــ المعروفة عند الافرنج بمعـــــــركة « مونجيزار » من اغرب المعارك في التاريخ ومن الحوادث التي يحـــار العقل في تعليلها وتفسيرها . فقد زحف السلطان صلاح الدين الايوبي بجيشين لجبين .. سارا من مصر والشام في آن واحد . على مملكة أورشليم الصليبية .. فارغم ملكها الشاب المريض بلدوين الرابع على الالتجاء الى اسوار عسقلان . وضرب حول المدينة الحصار .. واطلق رجاله في انحاء المملكة .. وكان عددهم نحو خمسة وعشرين الفا ..

تشاور ملك الافرنج مع قواده واعوانه .. ومعظمهم من «فرســـان الهيكل» فقر رأيهم على الخروج من المدينة المحاصرة .. ومباغتـــة اعدائهم ، وشـــق طريقهم الى بيت المقـــدس .

وكان عدد القوة التي يقودها بلدوين لايتجاوز اربعمائة فـــارس مدرعين بالحديد والفولاذ !

مغامرة عجيبة لايقدم عليها عاقل ..

ومخاطرة جنونية كتب لهـا النجاح والفوز : فقد اشتبك الفريقـان على التلال الممتدة في « ارض الرملة » وهي اليوم مدينـــة تعرف بهذا الاسم ، واشتد القتال على الخصوص في ــ تل جازر ــ فعرفت المعركة باسمه ، وانهزم جند صلاح الدين ، وخرج الصليبيون من المعمعـــة باسلاب لا تحصى ، وكان املهم الوحيـــد في بادىء الامر ان يبلغوا بيت المقدس سالمين !

.. كانت معركة « تل جازر » اعظم انتصار حربي احرزه الصليبيون في الارض المقدسة ، وذلك في سنة ١١٧٧ ميلادية ، الموافقـــة لســـنة ٥٧٣ هجــــــرية ..

وروى صلاح الدين نفسه لاخصائه خبر انكساره وارتداده ، فقال : «ستظل موقعة تل جازر من الالغاز الحربية التى لن تحل ... فقد فوجئت فى الميدان بثلاثة اسنة مشرعة وموجهة الى صدرى ، ولو لم يتداركنى رجال الحرس ، ويحولوا بينى وبين الفرسان الثلاثة المغيرين على لما نجوت من الهلاك» .

***

لم يعمد الفريقان الى الراحة بعد تلك المعركة الهائلة ، بل انصرف كل منهما الى الاستعداد للطوارىء . فراح صلاح الدين يدعو الامراء والاقطاعيين الى حمل السلاح لمحو العار الذى لحق به وبهم فى — تل جازر — وراح بلدوين الرابع يجند الشبان والكهول والشيوخ من سكان مملكته ، ويدعم الحصون القائمة على الحدود ، ويشيد قلاعا جديدة لحمايتها من الغارات . ومن تلك القلاع الجديدة اثنتان تعدان من اروع الإعمال الهندسية التى قام بها الصليبيون فى الشرق وهما قلعة «هونين» فى جبال لبنان الجنوبية ، وقلعة «معبر الاردن» فى وادى قادس ..

تولى فرسان الهيكل امر القلعة الاردنية ، فتعهدوا ببنائها واقامة حامية فيها . وفى شهرى اكتوبر ونوفمبر — تشرين الاول وتشرين الثانى سنة ١١٧٨ للميلاد الموافقة لسنة ٥٧٤ للهجرة تم ذلك العمل العظيم وارتفعت اسوار القلعة على التل المشرف على النهر ، عند المجازة التى عبر يعقوب « ابو الاباء » نهر الاردن منها ، والتى سميت « بيت يعقوب » ثم عرفت باسم — جسر بنات يعقوب — الى يومنا هذا .

وكان بين الذين ساعدوا فرسان الهيكل فى اعمال البناء ،وساهموا فى تموين الجيش الصليبى اثناء اقامته فى ذلك المكان لحماية العمال والبنائين رجل يدعى «فيليب» من ابناء فرنسا ، وابنه الشاب « كونراد »

جاء الرجل الى بيت المقدس صبيا ، وسقط من السفينة عند وصوله الى البر فلويت ساقه ، واطلق عليه الناس اسم « فيليب الاعرج »

نشأ فى فلسطين ، وتزوج امراة ارمنية من بنات انطاكية ، فرزق منها ابنه الوحيد —كونراد— وماتت الام يوم ولادته ، فأحبه «فيليب» حبا جما ..

وانخرط الاب والابن فيما بعد فى سلك الجندية ، فحاربا فى الميادين ، وتخصصا فى نقل الرسائل بين الصليبيين والمسلمين ، لانهما تعلما لغة البلاد واتقناها نطقا وقراءة وكتابة .

ومن المعارك التى خاض فيليب وكونراد غمـــارها ، معركة « تل جازر » التى انتصر فيها الصليبيون .

***

علم صلاح الدين ، وهو فى دمشق ،بأن الملك بلدوين يحصن الحدود وان المعاقل تنبت من الارض شهرا بعد شهر ، فعزم على استدراك الخطر قبل استفحاله ، وفى اوائل سنة ١١٧٩ ميلادية ، الموافقة لسـنة ٥٧٥ للهجرة شرع السلطان فى القيام بسلسلة من الغـــارات على تـــلك المعاقل والحصــــون ..

وبدأ بجبال لبنان ،فحل فى قلعة « بانياس » التى ملكها المسلمون من قبل ، وضرب حولها مضاربه ، وصار يخرج من ذلك الموقع المنيـع على رأس قوات صغيرة سريعة الحركة ، فيضرب الافرنج ضربـــات مؤلمة فى جهات صور وصيدا وبيروت . وفى العاشر من شهر حزيــران ــ يونيو ١١٧٩ ، وقعت بينه وبينهم معركة ــ مرجعيون ــ فانتصـر فيها صلاح الدين انتصارا باهرا ..

وفر الصليبيون من أمامه يطلبون النجاة بالتجائهم الى قلعــة هونين ، وقلعـــة بوفور وهى ــ شقيف ارنون ــ وأسوار صـــور وصـــيدا ..

جيء بالاسرى الافرنج الى صلاح الدين بعد المعركة ، فاذا بينهـم قائد فرسان الهيكل « أود » وصاحب الرملة « بلدوين » وأمير طبـــرية «هوج» وغيرهم من الاقيال ، فقبل صلاح الدين الفدية ممن دفعهـا ، وسيق الاخرون الى دمشق . ووقع نظر السلطان على شـــاب من الأسرى خيل اليه انه يعرفه من قبل ، أو انه على الاقل قد رآه مرة فانطبعت صورته فى ذهنه .

ناداه صلاح الدين فاقترب منـــه وهو يعـــرج ، ودار بينهمـا هـــذا الحـــوار :

ــ ما اســـمك ؟

ــ كونراد بن الاعــــرج ..

ــ ابن فيليب الاعرج ؟ انني أعرفه ..

ــ وهو ايضـــا يعـــرفك ..

ــ ولكنك تعرج ، انت أيضا . . اجرح أم عاهة ؟

ــ جرحت فى معركة تل جازر . .

فانتفض السلطان ، اذ كان هذا الاسم كافيا لتذكيره بتلك الهزيمة ويوجه الرجل الماثل بين يديه ، ولقد عرفه الان ، انكونراد الاعرج هذا ابن الاعرج فيليب ، هو أحد الفرسان الصليبيين الثلاثة الذين هاجموا صلاح الدين فى خصومة الوغى . . وحاولوا قتله برماحهم !

حدق السلطان ببصره فى الشاب الاعرج . . . ثم قال :

ــ لقد أردت اغتيالى فى تل جازر !

لم يضطرب الشاب لهذه الكلمات المفاجئة بل اجاب بلهجة ثابتة :

ــ القتل فى الميدان ليس اغتيالا ايها المولى . ولو قدر لى النجاح حينئذ لكان قومى الآن فى مامن من الخطر . . ! لكن الله انقذك لانه يريد لك الحياة !

ــ ويريد لى النصر فى النهاية ياكونراد . وان كنت انت قد حاولت قتلى ــ ولا اقول « أغتيالى » ــ فانك لم تفعل فى ذلك اليوم غير ما يمليه الواجب ، انك شجاع مثل أبيك . .

ــ واعرج مثله ! واخشى ان يمنعنى العرج من الاشتراك فى القتال . .

ــ بوسعى الآن ان اضرب عنقك يا كونراد الاعرج . . ابن الاعرج . .

ــ ولكنك لن تفعل ايها المولى ، لاننى اعزل وضعيف ، فقتلى جبن وصلاح الدين ليس جبانا . اما انا ، فقد هاجمتك وأنت على صهوة جوادك والسلاح بيدك . .

لم يامر صلاح الدين بضرب عنق الاعرج ، ولم يحتفظ به اسيرا فى قلعة ، بل أطلق سراحه بعد أن قطع كونراد على نفسه عهدا بان يبقى فى أملاك السلطان ، ولا يهرب عائدا الى أهله وقومه ، وكان الناس فى ذلك الوقت يثقون بالعهود ، ويحترمون المواثيق ، ويرتبطون بكلمة الشرف !

وعلم صلاح الدين من اسيره انه واحد من مئات العمال الذين ساهموا فى بناء قلعة ــ معبر الاردن ــ وانه يعرف المزات المؤدية الى

داخلها ، واسرارأبوابها الخفية ودهاليزها وملتوياتها ، فاحاطه بعنايته ، وشمله برعايته ، وعول على استخدامه فى مهاجمة ذلـــك الحصـــين المنيـــــع ...

وانقاد الشاب للسلطان بعد أن عاش فى كنفه بضعة شـــهور ، فأصبح له اطوع من بنانه ، ورضى بان يكون لجيشـــــه دليـــلا ، ولـــه مســـــاعدا ..

وجنح كونراد الاعرج الى خيانة قومه ، فهل فعل ذلـــك طمعـــا فى المال ، أو اعجابا بصلاح الدين ، أو حبا فى الجاه على أمل أن يوليـــه السلطان الحكم فى مقاطعة او حصن او برج ؟ هذا مالا سبيل الى البت فيــــه . فقد انقـــلب الجندى الصليبى الى حليـــف لصــــلاح الدين .. وكان لهـــذا الانقـــلاب اثره فى ســـقوط قلعـــة الاردن وتدميرهـــــا ..

فى الرابع والعشرين من شهر – آب – اغسطس ١١٧٩ ، ظهرت طلائع الجيش الايوبى فوق التلال المواجهة لمعبر الاردن ، وكـــــان صلاح الدين يقود الجيش بنفسه ، ومعه كونراد الاعرج . وكان المـــلك بلدوين قد علم بزحف المسلمين على القلعة ، فاستعد من ناحيته لارسال حملة تشد ازر الحامية المرابطة فيها . فاعتزم صلاح الدين ان يهاجـــم الاسوار قبل أن تصل تلك الحملة فتاخذه من الخلف .

واستمر الهجوم خمسة أيام بلا انقطاع . وفى التاسع والعشرين من شهر اغسطس ، نسف البرج الاكبر المشرف على مدخل القلعـــة ، فانهار على الجنود المدافعين عنه ، وتدفق المسلمون من تلك الثغـــرة الى الداخل . وقد تم نسف البرج ، وبث الالغــــام تحت الاســـوار وتوجيه المهاجمين فى دهاليز القلعة ، بمعرفة كونراد الاعرج وواسطته ، وكانت اوامر صلاح الدين صريحة واضحة : يقتل المدافعون عن الحصن ويؤخذ الذين يلقون السلاح اسرى ، وتضرم النيران فى القاعات والمخازن وتدك القلعة دكا ، بحيث لا يبقى لها أثر تراه عين ..

وشاهد قائد فرسان الهيكل خراب حصنه فالقى بنفسه فى النار ومات حـــرقا ..

وكان انتصار صـــــلاح الدين تاما كاملا !

ومن غرائب ذلك اليوم المشهود ان جماعة من النصارى الشرقيين كانوا يحاربون تحت راية صلاح الدين الايوبى ، فضلا عن تعـــــــاون كونراد الصليبى معه ، وان جماعة اخرى من المسلمين التركمان كانوا يساهمون مع فرسان الهيكل فى الدفاع عن القلعة ، ممـــا يدل على أن

الحروب الصليبية كانت قد فقدت كثيرا من صبغتها الاولى ، وتحولت الى عراك سياسى للفتح والسيطرة .

***

أمر صلاح الدين بان يساق الاسرى الى دمشق ، ريثما ينظر فى أمرهم ..

وقيل له أن بين انقاض القلعة جريحا من الافرنج يعالج حشرجة الموت ، ويطلب بالحاح ان يحمله الجند الى السلطان ، أو ان يتكرم السلطان بالذهاب اليه حيث هو ،قائلا أن صلاح الدين الذى يعترف الافرنج بكرمه وشهامته ،لن يضن عليه بهذه النعمة ، ولن يرفض ارادة رجل مشرف على الموت ..

ذهب السلطان الى الجريح . فاذا به امام شيخ ذى هيبة وجلال ينزف الدم من جميع انحاء جسمه ، وقد اغمض عينيه ، وانتابته رجفة عامة وجعل يئن من الالم ، ويتمتم بصوت خافت :

«صلاح الدين .. كونراد .. صلاح الدين .. كونراد» .

اقترب السلطان منه ، وانحنى عليه واخذ راسه بين يديه ،واسنده على صدره ، وخاطبه ببشاشة ولطف :

ـ انا صلاح الدين ....

ـ آه !.. الحمد لله !..

ـ من انت ؟ ..

ـ فيليب الاعرج ..

ـ ابو كونراد ؟

ـ نعم .. ابو كونراد الذى يقيم عندك منذ وقوعه فى الاسر ..

ـ اتريد ان تراه ؟

ـ احى هو أم ميت ؟

ـ حى يرزق !

فاستجمع الرجل قواه ، ورفع رأسه ، وفتح عينيه ، ولمع في نظراته بريق الامل والرجاء .. واستطرد قائلا !

ــ انبئني بالحقيقة ايها المولى ، فانا اريد ان اموت هادىء البال ، مرتاح الضمير ، منشرح الفؤاد . قيل لي ان ولدى قد حاد عـــن السبيل القويم ، وخان قومه وعشيرته ،وباع نفسه لك ياصلاح الدين . وانه جاء في معيتك الى هنـــا .. متخفيـــا في ثـــوب بـــدوى عـــربي ..

ــ من قال لك هـــــــذا ؟

ــ تتناقله الالسنة في كل مكان .. وقد حاولت ان اعثر له عـــلى اثر في خلال المعركة فلم اوفق . وانا الآن أودع الحياة يا صلاح الدين .. ولا اريد ان افارقها ، قبل ان تطمئن نفسي ، واعلم اذا كان ولدى باقيا على عهده لمليكه وقومه ، ام حنث بالعهد وخان الملك والقوم ؟ .. آه لو تحققت مخاوفي ، لمت حزينا كئيبا كسير الخاطر ، ملعونا من الناس .

ــ واذا كان ماقيل لك غير صحيح ؟

ــ افارق هذا العالم فرحا ممتنا شاكرا .. فخير لي ان يكون ولدى قد مات شريفا ، من ان يعيش خائنا !

خارت قوى الاعرج بعد هذا الجهد الذى بذله لمخاطبة صلاح الدين فامر السلطان بان يعد فراش من المعاطف والاعشاب ، وظل جالسا بقربه يواسيه ويلاطفه ..

وعمد صلاح الدين الى الكذب فاخـــفى عـــن المســـكين حقيقة امر ولده ..

ــ ان ابنك يا فيليب اسير في دمشق ، لكنه حر في التنقل داخل المدينة .. وقد غشك من قال لك انه خائن ! فباركه قبل موتك .. وامنحه رضاك الابوى ، واذكره في العالم الاخر .. انه شهم همـــام جدير بابيه الشهم الهمام .

فارتسمت على فم الاعرج ابتسامة الفرح والحبور ، وانبســـطت اساريره .. فاخذ يد صلاح الدين في يديه المرتجفتين ورفعها ببـــطء الى شفتيه ، وطبع عليها قبلة فاضت بها روحه صاعدة الى خالقهـــا ، وهو يتمتم بهذه الكلمات ! .. :

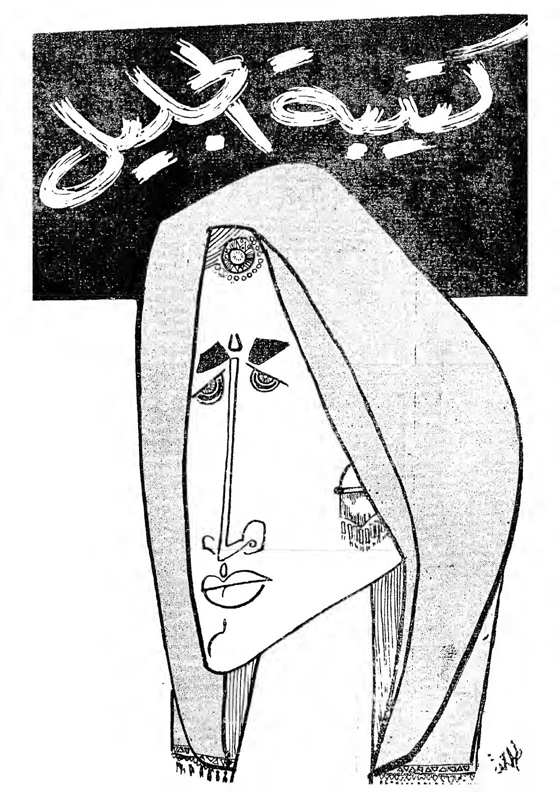
« شـــكرا .. الحمـــد لله !! »

وكان كونراد على بضع خطوات من ابيـــه ، لكنه لم يجـــرؤ على الاقتراب منـــه .

مات فيليب الاعرج مطمئن البال سعيداً بين يدى صلاح الدين الايوبى الذى التفت الى الابن الخائن وقال :

ـ لقد اشتريت حريتك بثمن باهظ يا كونراد .. عد الى قومك ، واستغفرهم عما بدر منـك ، اذا كانوا على علم بخيانتك .. او احتفظ بالسر مكتوما فى صدرك ، اذا كانوا يجهلون ما حدث .. اذهب .





قال الحاجب مخاطبا الملك بلدوين الثالث ، صاحب عرش اورشليم :

ـ انني اتوجس خيفة يا مولاى من هذا الغريب الذى يلح فى الاستئذان بالمثول بين يديك . فهو يرفض الافضاء باسمه ، ويكتفى بالقول بانه عربى من بلدة ـ عيلبون ـ جاء يطرح عليك امرا على جانب عظيم من الاهمية ..

فاجاب الملك مبتسما :

ـ ادخله يايوسف ، فانت ايضا من سكان هذه البلاد ، وتعلم مثلما أعلم ان الغدر ليس من شيم الناس هنا ، وان الخصام القائم بيننا وبين أعدائنا وجيراننا على امتلاك الارض المقدسة تسوده روح الشجاعة . والشهامة والوفاء .. ادخل الغريب اذن ولا تخف .

ودخل الغريب واماط عن وجهه اللثام ، فاذابه امرأة لفحت اشعة الشمس بشرتها فجعلتها اقرب الى السواد منها الى السمرة المالوفة عند العربيات ، وقد التحفت بعباءة من وبر الابل ، فانتفض الملك وقد بدت عليه الدهشة ، لكن المرأة بادرته بقولها !

ـ ان «فالحة» ايها الملك تقود الرجال فى الميادين مرتدية ثيابهم ..

ـ انت فالحة ؟

ـ انا فالحة بنت عامر أخت صابر العاملية .. سارقة الخيول كما تسموننى انتم وأعداؤكم .. جئتك ايها الملك لاعرض عليك صفقة رابحة .. فقد علمت انك فى حاجة الى مال كثير ، وانت تسعى للحصول على هذا المال من التجار والمرابين اليهود ، وانهم يمسكون عنك مالهم طمعا فى فوائد لاقبل لك بها .. فدع اليهود فى مملكتك ينامون على اكداس الذهب التى انتزعوها من المسلمين ومنكم واسمع ما اعرضه عليك واعمل بنصيحتى ..

ـ ومن اطلعك على اسرارى ؟ ومن قال لك اننى فى حاجة الى مال ..؟

ـ ان فالحة تعرف كل شيء ايها الملك . وقد جاءتك تبغى ثلاثة اشياء : توفير المال لكلانها نصرانية تعطف عليك يا ملك الصليبيين، والانتقام من الرجل الذى قتل اباها واخاها ، والفوز بنصيبها من الارباح التى سوف تجنيها انت من الصفقة !

اطرق بلدوين هنيهة مفكرا ، ثم رفع بصـــره الى الفتـــاة وقال المهجة المقتنع :

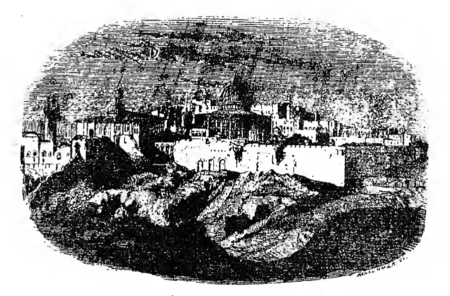
ــ اننا نعرفك يافالحة ونعرف ماجبلت عليـــه من جرأة واقـــدام وصدق واخلاص .. فالملك بلدوين يصغى اليك : تكلمى !

كانت فالحة بنت عامر تعيش مع ابيها واخيها بعد وفاة امهـــا فى بيت صغير بجبل الجليل ، على مقربة من بحيرة طبرية . وهى اسرة مسيحية رحلت الى تلك البلدة من جبـــل عامل بلبنان ، وحـــدث مرة ان ذهب ابوها عامر واخوها صابر فى قافلة الى بعلبك ، فاعتـــرض القافلة جماعة من فرسان نور الدين صاحب دمشق ، ونشب قتـــال بين الفريقين كانت الغلبة فيه للجنود فقادوا رجال القافلة الى سيدهم ..واظهروهم امامه فى مظهر المعتـــدين ، فأمر نور الدين بقتلهم ، ومن بينهم عامـــــــــر وابنه ..

واشتعلت نيران الحقد فى صدر الفتاة ، وقد اصبحت يتيمـــــة لاسند لها ولا معين ، فعولت على الثار واقسمت على الانتقام ،واستنفرت لفيفا من رجال قريتها فلبوا النداء، والفت منهم عصابة للسلب والنهب وراحت تقطع المسالك ، وتداهم القوافل ، وتسطو على مضارب العربان فى السهول والجبال ، وتخصصت فى سرقة الخيول فكانت تسوقهـــا افواجا وفرادى ، وتعرضها للبيع ، وتجمع من هذه الاعمال المحـــرمة اموالا طائلة تغدقها بلا حساب على رجال عصابتها ..

وضج منها المسلمون والصليبيون على الســـواء . وكان هـــؤلاء يحذرون منها اولئك ، واولئك يشكونها الى هؤلاء !

ففى سنة ١١٥٧ ــ الموافقة لسنة ٥٥٢ هجـرية ــ كان الصليبيون والمسلمون فى مهادنة ، خيم السلام خلالها على الارض المقدسة ، وانصرف السكان الى أعمالهم هادئين مطمئنين ، يضرعون الى الله أن يديم عليهم تلك النعمة الغالية .وكان المسلمون فى تلك الفترة من الزمن يأتون بقطعان الماشية ويطلقونها فى المراعى الواقعة داخل ممتلكات الصليبيين ، فى سفوح جبل الشيخ الذى كانوا يسمونه « حرمون » وعند بحيرة الحولة ، وعلى ضفاف الاردن عند منابعه فى جبل لبنان . وكان المسلمون أيضا يؤمون على الخصوص غابة كثيفة على مقربة من قلعة بانياس ، تلائم مراعيهـــا جيادهم المطهمة وافراسهم الاصيلة ، فيضربون مضاربهم بين الاشجار ويعهدون الى جماعة من التركمان المأجورين بحراسة الخيول فى تجوالها .. ولم يكن الصليبيون المقيمون فى القلاع والحصون والقرى والمزارع



بيت المقدس قديما
والاسوار حول قبة الصخرة

يتعرضون لهم على الاطلاق ، عملا بشروط المهادنة ، بل ان العلاقات بين الفريقين كانت على اتم ما يمكن من الوفاق والوئام

ولم يعكر صفو تلك العلاقات الطيبة ، فى السنتين الاخيرتين ، غـــير ما كانت تقدم عليه فالحة من خرق لشروط المهادنة ، وخروج على نصوص المصالحة ، بين رعايا بلدوين ملك اورشليم ، ورعايا نور الدين صـــاحب دمشـــــق .. !

وفى أوائل سنة ١١٥٧ ، خرج الحراس التركمان التابعـــون لنور الدين بعدد عظيم من اطيب الخيول اصلا ، وقصدوا بها الى غابة بانياس حيث اطلقوها كعادتهم فى المراعى الخصبة ، فانتشرت الخيول فى تلك البقاع وقد اطمأن حراسها اليها ..

تلك الخيول الكثيرة هى موضوع الصفقة التى جاءت فالحة بنت عامر تعرضها على الملك بلدوين الثالث !

فقد زينت له الامر بما شاءه لها خيـــالها من تبسط : وقالت ان فى وسعها الاستيلاء على تلك الخيول التى لا تقع تحت حصر ، وتســوقها الى بلدة بانياس او الى القدس أو الى اية بلدة يريدها الملك ، ثم تعرض للبيع ويفرج الملك ضيقه بما تدره عليه الصفقة من مال ..

واصغى الملك للنصيحة بالرغم مما بينه وبين المسلمين من اتفـــاق ووفاق ، ووسوس له الشيطان ــ وقد تجسم فى شخص الفتاة فالحة ــ ان يخالف قوانين الضيافة ويهاجم خصمه بدون سابق انذار ..

انه غارق فى الديون .. والدائنون يطالبون بالسداد ويلحون فى الطلب . وهذه الفتاة تعرض عليه امرا سهل المنال . ونور الدين اضعف من أن ينتقم لنفسه من غزو طارىء يفقده بضعة الاف من الخيول !

وداهمت قوة كبيرة من الفرسان الصليبيين المدججين بالســـلاح الحراس التركمان فى المراعى الشاسعة، فذبحوا فريقا منهم ، وفر الباقون لايلوون على شىء ، وساق الغزاة امامهم عددا هائلا من جياد الخيل ، وقطعانا لا تحصى من الماشية . وعرفت هذه الحادثة بغزوة الخيول ..

وكان ذلك ايذانا باندلاع نيران الحرب من جديد ، بين المســـلمين والصليبيين ، ظلت تأكل الاخضر واليابس مدة ثلاثين سنة !

فان نور الدين صاحب دمشـــق لم يصبر على الضيم ولم يسكت على الاهانة . بل جرد حملة بقيادة اخيـــه امير الامراء ناصر الدين ، وزحفت هذه الحملة على قلعة نمرود وكانوا يسمونها السبيبة ، بعـــد « غزوة الخيول » بثلاثة شهور ، واصطدم المسلمون بالصـــليبيين فى

السهول والجبال بين هذه القلعة وموقع بانياس ، فانهزم الصليبيون وقتل منهم خلق كثير . . واسترجع ناصر الدين بعض الخيول والماشية المسلوبة . .

وبينما كان فرسانه يتفقدون الجرحى في ميدان المعركة ، عثروا على الفتاة فالحة مثخنة بالجراح فاقدة الوعى . فنقلوها الى مكان امين وأحصوا فى جسمها اربعين طعنة رمح وضربة سيف !

وعندما بلغ خبرها مسمع ناصر الدين،ابى الا ان يزورها ويواسيها، ويبدى لها اعجابه واجلاله !

وأمام الفتاة الباسلة المغامرة ، ركع القائد المنتصر ، وقال بصوت تجلى فيه التاثر العميق :

ــ ان كل جرح من هذه الجراح يكفى لقتل رجل . ولكن الله يرعاك بعين عنايته يا ابنتى . فعودى الى بيتك حرة طليقة . وارجو الا يعاودك الحنين بعد اليوم الى استئناف اعمال السطو واللصوصية !

وحمل الفرسان الفتاة الجريحة وسلموها الى قومها . .

***

اقامت فالحة بنت عامر فى قريتها غيلبون حيث عالجت نفسها من جراحها ، وانصرفت الى زراعة الارض وتربية الدواجن ، واوشكت ان تنسى ماضيها وما خاضته فيه من مغامرات طائشة . .

ولكنها خرجت من عزلتها ، أو أخرجت منها فى سنة ١١٧٥ للميلاد، الموافقة لسنة ٥٧١ للهجرة . .

ففى تلك السنة ، كان صلاح الدين يوسف الايوبى قد قضى على منافسيه فى سورية ومصر ، وتخلص ممن كانوا ينازعونه الحكم ، ونادى بنفسه سلطانا بعد موت نور الدين ، ودانت له البلاد الشامية والمصرية، وراح يعد العدة للقضاء على دولة الصليبيين فى بيت المقدس . .

وكان السلطان المحظوظ قد سمع باخبار فالحة بنت عامر العاملية، ورغب فى رؤية تلك المراة العجيبة ، وتم له ما اراد ، وذهبت اليه فالحة بنفسها الى دمشق !!

وقال صلاح الدين :

ــ يا فالحة !. . اننى اكبر الشجاعة حيثما وجدت ، لا فارق عندى بين مسلم ونصرانى . واكافىء الابطال سواء اكانوا يحاربون فى صفوف جيشى أو تحت الوية الاعداء . وقد علمت بخبر الجراح الاربعين التى

أصبت بها فى معركة الجليل منذ ثمانية عشر عاما . وقد اهديتك اليوم اربعين من جياد الخيل العربية الاصيلة . فتقبلها هدية من صـــلاح الدين ، اكراما لجراحك الاربعين !

واجابت فالحة وقد اغرورقت عيناها بالدموع :

ـ يا سيد الابطال !.. لقد اخلدت الى السكينة بعدما عفا عنى ناصر الدين ، وكان فى وسعه أن يجهز على او يتركنى فريسة للمـــوت البطيء فى ساحة القتال. ولم اتخذ لى زوجا من الرجال بل عشت وحيدة فى بيتى . وما كنت اظن اننى سأخرج يوما من عزلتى . لكنك الآن تفتح أمامى افقا جديدا ، وترسم لى طريقا سوف أسير فيه على خطاك وتحت لوائك . فان الاربعين من جياد الخيل التى تهديها الى فالحة ، ستتألف منها كتيبة من الفرسان تخوض معك غمار المعـــارك ياصـــلاح الدين ، وتشاركك فى الميادين ، سراءها وضراءها !

***

على هذه الصورة ، وفى تلك الظروف ، تألفت كتيبة « الجليل » من اربعين فارسا من العرب المسيحيين ، وساهمت فى الحروب بقيـــادة فالحة بنت عامر العاملية ، مدة اثنتى عشرة سنة ، وتفرق شملها بعـــد معركة حطين فى سنة ١١٨٧ ، فقد قتلت فالحة فى تلك المعركة وهى فى الخامسة والخمسين من العمر ، ودفنت فى قريتها عيلبون ..

ولو نبشت القبور فى تلك البلدة الصغيرة ، التى جاء ذكرها فى التوراة باسم « ايالون » لعثر المنقبون على رفات كثـــيرين من أولئـــك النصارى الذين حاربوا فى صفوف المسلمين ، وعلى رفات كثيرين من المسلمين أيضا ، الذين حاربوا فى صفوف الصليبيين . فان تلك الحروب التى اثيرت باسم الصليب وتحت شارته ، فقـــدت بعد سنة واحدة من نشوبها ، صبغتها الدينية البحتة ، وتحولت الى تطاحن فى سبيل السلطة والمصلحة !..

حبيبة القائد



دارت رحى القتال وحمى وطيسة فى الصحراء حول تدمر، واحتكت ركاب العرب بركاب التتر ، فكانت موقعة هائلة روت فيهـا دماء الابطال رمالا لم يسل فوقها سائل منذ شهور . . وما ان غربت الشمس حتى كان فرسان العرب قد مزقوا جيش التتر شر ممزق . فأطلق من بقى منهم على قيد الحياة للخيول الاعنة طلبا للنجاة فى بطن الصـــحراء . وعاد العرب بقيادة الامير منقذ الشهابى ، يسوقون أمامهم عددا وافرا من الرجال أسرى ومن النساء سبايا

وكان بين الاسرى الشاب « مرتان » والفتاة « جهار »

هى ابنة احد زعماء التتر وهو ابن خالها . وكانا قد تعـاهدا على الزواج ، عملا برغبة الوالدين وأجابة لنداء القلب فى آن واحد .

قادهما الامير منقذ الى احدى قلاعه فى سهول حوران ، ولم يعاملهما كما يعامل الاسرى الاذلاء ، بل اكرم مثواهما كأنهما غريبان نزلا عليـــه ضـــيفين . .

لكن الشاب والفتاة كانا يحنان الى الربوع النائية ، التى نزل فيها أهلهما وضرب فيها أبناء عشيرتهما المضارب . فجعلا يتحينان الفرص للفـــرار . .

جلس مرتان يوما يبث حبيبته نجواه وقد هاجت شجونه ، فحال دون تسرب اليأس الى قلب الحبيبة ومناها بطيب الآمال وحلو الرجاء .

ــ علمت يا جهار ان الامير منقذا وافراد أسرته عزموا على الرحيل عن هذه الديار والنزول فى وادى التيم . .

ــ كيف علمت ذلك ؟

ــ سمعت الخدم يتحدثون به . فان الامير من الانصار المقـربين الى السلطان نور الدين . وقد حنق عليه السلطان صلاح الدين فخاف الامير سوء العاقبة وقرر الاقامة فى الجبال الشمالية هربا من انتقـــام صلاح الدين . فعلينا أيتها الحبيبة الا ندع الفرصة السانحة تمر دون ان نغتنمها فنفر من الاسر ونستعيد حريتنا !..

***

علم الافرنج أصحاب السواحل بقدوم الشهابيين الى وادى التيم ، فجردوا عليهم جيشا قويا لمحاربتهم وصدهم . فكانت بين الفريقين معركة حامية فى سهل البقاع ، أسفرت عن فوز الشهابيين ، فطـــاردوا أعداءهم واحتلوا البلاد واقاموا فيها عنوة وقسرا

وتمكن مرتان وخطيبته جهار من الهرب فى خلال المعمعة . فسارا نحو الشمال على أمل ان يصلا الى عشائر التتر الضاربة وراء المناطق الحضرية .

قضيا ليلتهما الاولى فى خرائب بعلبك ، والتقيا فى صبيحة اليوم التالى بقافلة من قوافل التجار قاصدة الى الشرق فانضما اليها

لكن غزوا من البدو الرحل هاجم القافلة فتشتت المسافرون وعبثا حاولت الفتاة جهار أن تقف لحبيبها على اثر . .

ذرفت المسكينة دموعا حارة وجعلت تندب سوء طالعها وقضت تلك الليلة بين الصخور الصماء التى لم ترق لنحيبها . .

تابعت السير بالمسير ليلا ونهارا . فالتقطها اخيرا احد الرعاة على مقربة من « قلعة الحصن » وارسلها مع اصدقاء له الى جبل لبنان ، ومن هناك قصدت الى الارض المقدسة ، والتحقت بالقوافل متنكرة فى ثوب رجل ، فوصلت الى مصر وهى تتساءل ماذا تخبىء لها الاقدار ايضا من مفاجآت !

سمعت بما يتصف به السلطان صلاح الدين الايوبى ، وهو الذى تولى الملك فى الوقت الذى وصلت فيه الفتاة الى مصر ، فلجأت الى قصره، وطلبت حمايته ، فأنزلها الملك الناصر فى كنفه ، بين وصيفات اسرته وخدمهـا . .

وكان ذلك فى عام ٥٦٧ للهجرة ، الموافق لعام ١١٧١ للميلاد .

واطمأنت المسكينة ولكنها ظلت تذرف الدمع على فراق ذويها .

***

وقع عليها نظر القائد أحمد النورى ، فاعجبتـه ، وطمع فى أن يستحوذ عليها ، وراح يرقب الفرصة لتحقيق رغبته . .

ليس الامر سهلا . فهى ضيفة على السلطان ، تقيـم فى قصره ، تتمتع بحمايته . لكن جراة النورى لا تصدها الصعوبات .

ارسل اليها من غرر بها ، وحملها على الخروج من دار السلطان ، ثم تم لزبانية القائد اختطافها فذهبوا بها الى منزل منعزل فى ضـواحى القـاهرة . .

واستأثر بها أحمد النورى . فباتت جهار تندب حظهـا العـاثر ، وتبكى شبابها الممتهن ، وتتحسر على حبها الضائع !

وشاءت الاقدار أن يظل مرتان على قيد الحياة وان يفر من بلاد الشام قاصدا الى مصر . .

طلب المتول بين يدى صلاح الدين فاذن له وقص على السلطان قصته . وقال له ان أخبار خطيبته جهار قد بلغت اليه وانه علم بنزولها ضيفة على حرم السلطان ..

فاكفهر وجه صلاح الدين وقال :

ـ اجل يابنى ، خطيبتك نزلت ضيفة على حرمى ، لكن نذلا زنيما قد اختطفها من القصر ولم يتمكن رجالى من القبض عليه ولم نعلم بعد من هو ذلك المعتدى الاثيم !

ـ اذا لدى رجاء افضي به اليك يا مولاى : دعنى ابحث عن خطيبتى ومر اذا شئت ان يمد الى رجالك يد المساعدة !

ـ لك ما تريد !

***

خرج مرتان من القصر وبيده امر خطى من السلطان ، وبحث طويلا فاكتشف السر .. علم ان القائد احمد النورى يحتجز الفتاة فى ذلك المنزل البعيد ، فتربص له ذات ليلة واعد القوس والسهام وعزم على الانتقام منه .

ظل ساعات طويلة يسترق السمع ..

خيال على سطح المنزل ..

لاشك فى أن القائد صعد يستنشق الهواء ..

ها هو ذا قد اقترب من حافة السطح ..

شد مرتان الوتر وارسل السهم ..

صرخة مفجعة فى سكون الليل ، وجسم يهوى من السطح الى الحضيض !

لكن الصرخة ليست صرخة رجل ..

أسرع مرتان الى ذلك الذى ظنه عدوه الالد ، فاذا به امام امراة تئن وتتوجع ، والدم يسيل غزيرا من صدرها !

ـ آواه ! حبيبتى ! جهار .. ما اتعسنى واشقانى !

ـ مرتان .. خير لى ان أموت بيدك .. صعدت الى سطح المنزل طلبا للانتحار .. نعم .. بئست من الحياة بعيدة عنك .. فساعدتنى انت على التخلص منها .. شكرا لك أيها الحبيب !

فاكب العاشق التعس على حبيبته يمزج دموعه بدمائهـــا ، وقد اغمضت جفنيها ولسان حالها يقول :

قتل النفـــوس محـــرم لـــكنه حل اذا كان الحبيب الفـــاعل

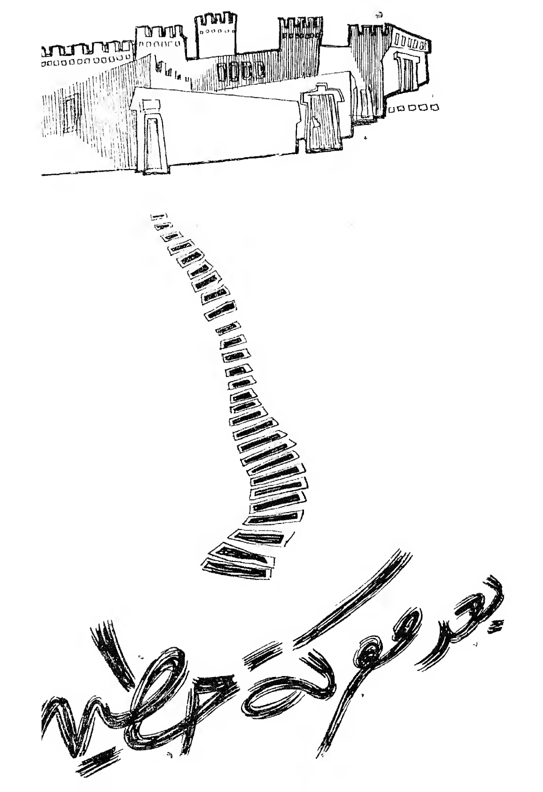
ارضى ويغضب قاتلى فتعجبـــوا يرضى القتيل وليس يرضى القاتل

***

بلغ مسامع السلطان خبر ما حدث . فوبخ النورى على ما صنع ، وطرده من حرسه . .

واحل محله الفتى العاشق ، والحبيب القاتل مرتان التترى ،الذى اقسم للملك الناصر يمين الولاء ، وكان له منذ ذلك الوقت طائعا وفيا . .

اما قصة جهار ،فقد تناقلتها الالسنة ، واصبحت موضوعا لاغنيـــة نظم كلماتها حبيبها الذى قتلها بيده ، وصار الناس ينشدونها كلما دارت بينهم احاديث الحب والوفاء !



اليوم العاشر من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٦ للميلاد التقى فارسـان يمتطى كل منهمـا صهوة جواد عربى اصيل ، فى الطريق الوعرة المؤدية من مدينة صور الى حصن عكاء. فأوقف الفارسان جواديهما ، وانطلقت من بين شفاههما ، فى آن واحد ، هاتان الكلمتان :

ـ يا لمحاسن الصدف .

وقال احـدهما :

ـ كنت مسرعا اليك ياعامر لوداعك الوداع الاخير ، قبل التحاقى بجيش سيدى الكونت رودمير ، المرابط على مقربة من هنا .

فأجاب الآخـر :

ـ وكنت من ناحيتى ايضا مسرعا اليك يافيليب ، لوداعك الوداع الاخير ، قبل التحاقى بجيش السلطان صلاح الدين الزاحف على مواقع الافرنج فى هذه الديار .

وترجل الفارسان ، وتعانقا طويلا ، وجلسا على حافة الطريق ، فوق صخرة تشرف على البحر الهادىء ، وجعلا يتبادلان الحـديث والذكريات . .

***

كان فيليب دورسال الفرنسى جنديا فى خدمة الكونت رودمير ، الذى كان يحارب فى صفوف الصليبيين ، ويتنقل من ميدان الى ميدان برجاله وعتاده ، على حسب الظروف والاحوال ومقتضيات الحروب.

وحدث ذات يوم ، فى احدى المعارك التى دارت رحاها فى جبـال نابلس ، ان التحى فيليب ناحية من ميدان القتال ، فاذا به امام جريح يفقد دمه بغزارة ويئن من الالم . فاقترب منه الجندى الفرنسى وعرف فيه بطلا عربيا مشهورا ، كثيرا ما رآه فيليب فى الميادين ، وكان الافرنج انفسهم يعترفون له بالشجاعة ويقرون له بالبسالة ، لأنه لم يكن بين ابطال ذلك العهد المجيد من ينكر على صاحب الفضائل والخصال فضائله وخصـاله .

كان الجريح يطلب ماء ، فحمله اليه فيليب ، وعندما روى العربى ظمأه ، فتح عينيه وتمتم قائلا :

ـ اقتلنى الآن أيها الجندى الصليبى ، فانى أرحل عن هذا العـالم قرير العين بعد أن وفيت الواجب حقه . وأرجو أن يكون النصر فى هذه الموقعة لاعلام المسلمين !

فقال له فيليب :

ـ وهل سمعت يا ابن الاكارم ان احدا من رجال رودمير أجهز على جريح أو تهجم على أعزل ؟ لقد عرفتك ياعامر التهامى ، وشاهدت فعالك فى الميادين . وثق ان الجندى الذى تراه الآن امامك يجل فيك الشهامة والاباء : سأنقذ حياتك . وقد تسنح لك الفرصة فى مستقبل الايام فتنقذ حياتى !

وانتهت تلك المعركة بانهزام المسلمين . ولكن فيليب دورسال الفرنسى لم يلحق برفاقه ، عندما اندفعوا فى مطاردة أعدائهم ، بل ركب جواده ، وحمل معه عامرا التهامى الجريح ، الى مكان منعزل فى الجبل ، حيث قضى ليلته بقربه ، وضمد جراحه ، واعاد اليه الحياة .

وتوثقت عرى الصداقة بين الرجلين ، فانتقلا معا الى جبال لبنان ، حيث أقاما مدة من الزمن ، بعيدين عن الحصون والقلاع وساحات القتال .

وكانت الحوادث تتتابع وتتسارع فى اثناء ذلك ، ونيران الحرب تندلع السنتها فى كل مكان بين المسلمين والصليبيين . فقال عامر ذات يوم لفيليب :

ـ اى صديقى . اننى احن الى ديار اهلى ومضارب عشيرتى . فسأقصد الى وادى التيم حيث ينزلون ، واقضى بينهم مدة من الزمن ، ثم ابعث اليك باخبارى او اوافيك فى عزلتنا هذه !

فأجابه فيليب :

ـ اننى ادرك ياصديقى الدافع الذى يحملك على ذلك ، لاننى اشعر به ايضا ، وارغب مثلك فى الذهاب الى الاهل والخلان . فسأقصد من ناحيتى الى عكاء حيث ينزل رجال رودمير ، وبينهم اخوتى وابناء عمى . ولن تفرق الايام بيننا ياعامر !..

وافترق الصديقان على أمل اللقاء !

وكان اللقاء فى اليوم العاشر من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة .

فقد حل عامر التهامى فى مضارب عشيرته بوادى التيم ، وقوبل بالتهليل والتكبير ، وكان القوم يظنونه ميتا . وعلم الرجل ان الملك الناصر يوسف صلاح الدين قد أوفد رسله الى القبيلة يطلب قيامها الى القتال ، والتحاقها بجيش المسلمين فى طبرية ..

وعلم فيليب على أثر وصوله الى عكاء ان الملك جى دى لوسينيان



مدينة صور قديما
التى دارت حولها معارك طاحنة فى عهد صلاح الدين

الصليبى قد اوفد رسله الى الامرات والحصون والقـلاع المسيحية ، يطلب من رجالها الاستعداد للحرب ، وموافاته الى بحيرة طبرية للقـاء المسـلمين .

ورأى عامر ، ورأى فيليب ، ان الواجب يقضى على كل منهمابالسير حيث تأمر السلطة العليا . واراد كل منهمـا قبل اللحـاق باخوانه ان يعود الى صديقه ويودعه الوداع الاخير ..

واتجه عامر الى عكاء للقاء فيليب ..

واتجه فيليب الى لبنان للقاء عامر ..

وشاءت الصـدف ان يلتقيـا فى ذلك الطـريق المؤدى من صـور الى عكاء ...

فكان بينهما حديثوكانت دموع وكان فراق ! فساركل منالبطلين العدوين الصديقين ، الى حيث يدعوه الواجب ،ملبياندا‌ء الدين والملك!

***

قرر صلاح الدين السير فى القتال الى النهاية ، وانتزاع الاماكن المقدسة من ايدى الصليبيين وامرائهم واقيـالهم واسـاقفتهم ، ناطلق الحرب من عقالها ، ونادى بقومه أن هبوا الى الجهاد قبل أن يعدالاعداء عدتهم للدفاع ، وتصل الامداد التى وعدوا بها من بلاد الغرب ، والتى تحملها اليهم سفنهم العديدة فوق مياه البحار .

وانقضت سنة كاملة والحرب سجال بين الفريقين . فتارة يضحك النصر للمسلمين وتارة يعبس فى وجوههم . وسالت الدماء حول اسوار المدن وفوق قمم الجبال وفى بطون الاودية ، من عكاء الى اورشليم الى نابلس الى الـكرك والصحراء .

واراد السلطان ان يضرب ضربة قاضية ، عندما بلغه ان جيشالجبة يقطع البحار الى سواحل الشرق . فحشد كتائبه فى الكرك والشوبك . ووافاه هناك جيش من حلب بقيادة زين الدين داردم ، وجيش مندمشق بقيادة قيماز النجمى ، وجيش من البادية بقيادة مظفر الدين كوكى ، وغيرها من الجيوش جهزها الامراء والقواد من حدود مصر الى تخوم العراق ، فزحف السلطان بتلك القوة الهائلة الى بلدة طبرية الحصينة .

وكان الافرنج قد جمعوا جموعهم وساروا للقـاء المسلمين ، قبل أن يصلوا الى ساحل البحر ، فالتحم الجيشان فى موقعة فاصلة ، فىيوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٥٨٢ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٧ للميلاد .

قاتل الفريقان قتال الاسود ، وقد ايقن كل منهما أن الارض المقدسة ستؤول الى من يعقد له النصر فى تلك المعركة ، فاشتبكت الركاب بالركاب ، وتطايرت الرءوس عن الاعناق ، وارتفعت صيحات المحاربين الى كبد الفضاء ، وغاصت قوائم الجياد فى انهر من الدماء ، وتساقطت الجثث اكداسا فوق اكداس . وبعد ساعات من طعن وضرب لم يدون التاريخ مثلهما ، تمايلت صفوف الافرنج ، ودب اليأس من الفوز فى صدورهم ، ورأى الجنود خمسة من امرائهم يهوون على الارض مجندلين، فصاح احدهم : « العدول عن القتال خير وأوفى ! » فردد آخرون هذه الكلمات . وما هى الا ساعة حتى تراجعت كتائب الصليبيين واندفعت تطلب النجاة فى جبل حطين !

وألهب انهزام العدو صدور المسلمين حماسة ، فانطلقوا فى مطاردة الصليبيين ، وأحاطوا بهم فى حطين احاطة السوار بالمعصم ، فتحولت المعركة الى مذبحة هائلة ، ولم ينج من الافرنج — وكان عددهم نحو ثمانين الف فارس وراجل — غير بضعة آلاف طلبوا الامان من صلاح الدين . فأمر السلطان بالكف عن القتال ، وأخذ الاسرى الى القلاع

وعندما اجتمع قواد الجيش الظافر ، بعد معركة طبرية وحطين ، حول سلطانهم المحبوب المطاع ، قال لهم صلاح الدين :

— لقد دون جيشنا الباسل اسمه اليوم فى جبهة الدهور . ويحق للمسلمين بعد هذا النصر المبين ، أن يجعلوا من جبل حطين كعبة ثانية، يحجون اليها مكبرين مهللين مستبشرين !

***

— وماذا تريد ياعامر أن تصنع بهذا الرجل ؟

القى صلاح الدين هذا السؤال على عامر التهامى ، فأجاب البطل العربى :

— مولاى ، وعدتنى فى ميدان القتال ، عندما مررت امامك وسيفى مخضب بدم الاعداء ، ان تجيبنى الى رغبة واحدة افضى بها اليك بعد انتهاء المعركة . وها قد جئت الى مولاى طالبا منه الوفاء بالوعد . وما كان صلاح الدين يوما من الحانثين !

— جئتنى اذن ياعامر تطلب العفو عن جندى مسيحى ، حاول فى الميدان أن يضرب بسيفه عنق صلاح الدين ! فان ذلك الاسير الذى تحدثنى عنه ، هو بعينه ذلك الرجل الذى اشتبك سيفى بسيفه ، وكان يريد اخذى على حين غرة ..

ـ اعلم ذلك يامولاى . ولو كان ذلك الرجل جنديا خاملا ،لمارايت منى اهتماما بأمره . لكنه من أبطال الصليبيين المعدودين ، ومن فرسانهم المغاوير . وقد انقذ هذا الرجل حياتى ، فأقسمت ان انقذ حياته،واقابل صنيعه بمثله ، عندما تسنح لى الفرصة ، وقد سنحت اليوم .

طلب صلاح الدين أن يؤتى اليه بذلك البطل الصليبى ، فســـاق الجنود اليه فيليب دورسال ، صديق عامر التهامى ورفيقه وصـــاحب الفضل عليه .

فقال صلاح الدين :

ـ لقد حاولت قتلنا يا هذا ، ونحن الآن نعفو عنك ، فهل تحفظ لنا جميل الذكرى على صنيعنا هذا ؟

فأجاب فيليب ، بعد أن القى نظرة على حاشية السلطان :

ـ أيها المولى ! انك تعفو عنى اجابة لرغبة عامر التهامى ، الـذى انقذت حياته فأراد اليوم أن ينقذ حياتى . فلست اذن مدينا لك بعطف أو معروف . وانما أنا مدين بهما الى هذا الصديق الوفى . ولولاه لمـا عفوت عنى ، بل لضربت عنقى .

فمد صلاح الدين يده الى فيليب دورسال وقال :

ـ وددت والله لو لم يطلب عامر العفو عنك ، لكى اصدر ذلك العفو من تلقاء نفسى ، مكافأة لك على صراحتك ، واعترافا منى بشجاعتك .. فصافح أيها البطل هذه اليد التى لم تصافح غير أيدى الشـــجعان الصناديد .. لقد أجبت عامرا التهامى الى رغبتـــه ، وعفوت عنك ، واضيف على ذلك اننى لن احتفظ بك أسيرا ، وانك حر طليق .

***

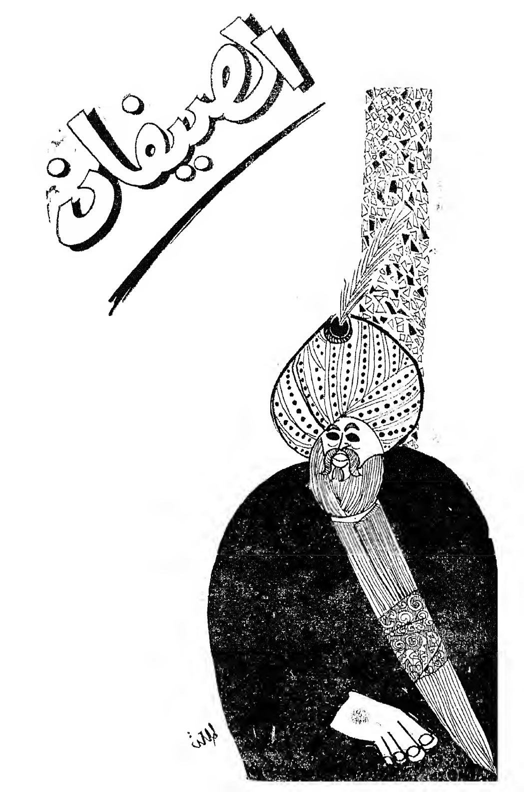
هجر عامر عشيرته ، وهجر فيليب قومه ، وعاش الاثنان معـــا ثلاث سنوات كاملة ، فى جبال السامرة ، وأقاما فى صومعتين ، وانعكف كل منهما على الصلاة والعبادة حسب تعاليم دينه ، وكان النـــاس يقصدون اليهما للتبرك منهما ، والاصغاء الى ارشاداتهما .

وأبديا رغبتهما لكل من كان يقترب منهما ، فى أن يرقدا رقادهما الاخير جنبا الى جنب ، فى جبل الزيتون فى أورشليم ، سواء أكانت المدينة المقدسة فى أيدى المسلمين أم فى أيدى الافرنج .

وكان الناس يعدون الصديقين بتحقيق رغبتهما ، بعد وفاتهما ..

ولما انقضت سنتان على معركة حطين . كان الصاعد الى جبــــل الزيتون ، يرى تحت شجرة وارفة الظل ، قبرين صغيرين ، يعلو أحدهما شاهد من حجر ، ويعلو الآخر صليب من خشب .

فقد نفذت رغبة الصديقين الاخيرة . ونام الاثنان نومهما الابدى فى ظل تلك الشجرة ، فى سفح جبل الزيتون . وللمرة الاولى فى التاريخ ، تجاورت الشارتان ــ صلبب فيليب وشاهد عامر ــ وكان ذلك دلالة ملموسة على ان القلوب فى استطاعتها ان تتصافى ، مهما تكن العقــــائد الراسخة فى الصدور . وان الناس جميعا اخــوة فى السراء والضراء ، والدين للديان .


الصيفان

قال صلاح الدين وهو يداعب لحيته ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة الرضا والارتياح : « هذا ما كنا نرجوه ونتمناه . فقد وقع القوم فى الفخ ودفعوا بأنفسهم دفعا الى الهلاك ! .. الله اكبر ! »

واشتبك الجيشان فى قتال مرير ، تطاحن فيه المشاة والفرسان ، وكان يقود المسلمين فى تلك المعركة السلطان صلاح الدين الايوبى ،ويقود الصليبيين ملك بيت المقدس « جى دى لوسينيان » ..

عرف السلطان كيف يجر أعداءه جرا الى المواقع التى اختارها بنفسه ميدانا للقتال . فقد صف جيشه على شاطىء بحيرة طبريا ، وتظاهر أنه يتاهب لمهاجمة المدينة التى تحمل البحيرة اسمها ، فتحرك الصليبيون من مراكزهم المنيعة لنجدة المدينة ، واغتنم صلاح الدين الفرصة ونشر جناحيه حولهم ، فقطع عليهم خط الرجعة من ناحية ، وحال دون وصولهم الى شاطىء البحيرة من ناحية اخرى ، فاضطروا الى الاعتصام فى مرتفعات « حطين » الوعرة الجرداء ، حيث لا ظل ولا ماء ، وهذا ما كان يريده لهم السلطان الداهية . فان القيظ كان شديدا ، واشعة الشمس الوهاجة محرقة كاوية ، والخيل وفرسانها على السواء لا تقوى على الكر والفر اذا حرمت من الظل والماء معا ..

واستغرق القتال يومين كاملين ، وانتهى بهزيمة الصليبيين هزيمة منكرة ، واسر ملكهم وكبار أمرائهم وقوادهم ، وترك الطريق حرا أمام صلاح الدين لمهاجمة بيت المقدس والقضاء على الدولة التى انشأها الصليبيون قبل ذلك التاريخ بنحو مائة سنة .. !

***

حالف الصيف اذن صلاح الدين فاستغل السلطان ذلك الحليف الامين ايما استغلال ، فمنع عن اعدائه الماء ليقتلهم العطش ، وامر بأن تشعل النار فى الاعشاب اليابسة لكى تحمل الرياح الآتية من الخلف دخان تلك المحارق الى صفوف الصليبيين فتعمى أبصارهم وتضاعف عذابهم ، ورتب جيشه بحيث يشن غاراته على الاعداء من أربع جهات فى ان واحد ، فاجتمع على الجيش الصليبى « حر الزمان وحر النار وحر القتال ! »

وما غربت شمس ذلك اليوم ، حتى كان ما ارتقبه صلاح الدين وتمناه قد تحقق ، فقتل من الصليبيين من قتل ، وأسر من أسر ، وتاه فى البرارى والقفار من طلب النجاة من الموت والأسر ..

فى سفح جبل « حطين » ، وبجانب صخرة واحدة ، سقط فارسان جريحين فى حومة الوغى : أحدهما جندى فى جيش الملك « جى دى

لوسينيان » اصيب بضربة سيف مزقت كتفه اليسرى ، والثانى جندى فى جيش صلاح الدين اصيب بطعنة رمح مزقت صدره .

وزحف الجريحان على الارض ، بين الحصى المتراكمة والاعشاب المحترقة ، وكل منهما يريد الالتجاء الى كهف صغير فى كنف تلك الصخرة الضخمة ، لعله يجد فيه الراحة او تدركه فيه النجدة

فى ذلك المأوى الضيق التقى الجريحان ، وفى ذلك الكهف نسى الرجلان انهما كانا منذ ساعات يقتتلان . فقد جمعت بينهما المصادفة بعد المعركة ، وقرب بين قلبيهما المصاب الواحد . فراح كل منهما يواسى الاخر ويساعده على وقف تدفق الدم من جرحه ، ويتمنى له الشفاء كما يتمناه لنفسه . فالجندى فى تلك اللحظات الرهيبة ليس الا انسانا ، يتألم ، ويشفق على من يتألم مثله ، ولا يبخل على الغير بالعطف الذى يرجوه من الغير على نفسه

وطلع فجر الصباح التالى ، واذا بالجريحين نائمين الواحد بجوار الآخر ، واذا بهما قد أصبحا صديقين بعد أن كانا بالامس عدوين ..

***

وحدق الجريح المصاب فى كتفه البصر فى جاره المصاب فى صدره ، وخاطبه بالعربية قائلا : « ارى يا صاح فى عنقك لطخة حمراء ظننتها بالامس دما ، واتبين الآن أنها وشم فى بشرتك .. »

ولم يدهش الجريح الآخر لسماعه جاره يخاطبه بالعربية ، فان الصليبيين المقيمين فى الاراضى المقدسة كانوا يجيدون لغة البلاد . ولكنه انتفض لاشارة رفيقه الى تلك اللطخة الحمراء ، وحدق فيه البصر من ناحيته ، وأشار الى عنقه وردد قائلا : « وانا ايضا يا صاح ، ارى فى عنقك مثل هذه اللطخة الحمراء ، واتبين كما تبينت انت ، انها ليست دما بل وشم فى بشرتك ..

وصمت الرجلان قليلا ، وارتعشت شفاههما ، وارتسمت الدهشة على وجهيهما ، وسأل الصليبى زميله : « ما اسمك ؟ »

واجاب الآخر :

ــ قيس الاحمر .. وانت ؟

ــ جاك لروج ، ومعناها جاك الاحمر !

وتعانق الجريحان والدموع تنهمر من عيونهما .. وتمالك كل منهما نفسه ، وتحمل الآلام المبرحة التى يعانيها ، وقاوم دبيب الموت فى عروقه ، وراح الاثنان يستعيدان ذكرياتهما ، ويقصان قصة حياتهما ، وما حدث لاسرتهما الواحدة !

***

فى أثناء الحملة الصليبية الاولى ، كان بين جنود « الكونت ريمون دى تولوز » أحد زعماء القوم ، شقيقان من موطنه بفرنسا ، تبعاه الى الارض المقدســة ، وعرف كبيرهما بين رفاقه باسم « أوجين لروج » وعرف صغيرهما باسم « برنار لروج » وقد أطلقت عليهما كنية «لزوج» ومعناها الاحمر بسبب لطخة حمراء كانت تشوه عنق كل منهما ، بين أذنه اليسرى وكتفه . وكان الاخوان يقولان انها وراثية فى أسرتهما ، وأن أباهما وجدهما كانا يحملانها فى عنقيهما ، وسوف يحملها أبناؤهما واحفادهما فى اعناقهم أيضا .. !

وكانت شراذم من الصليبيين فى أثناء ذلك تقوم بغزوات متواصلة فى البقاع المجاورة ، فخرج « برنار لروج » ذات يوم مع فريق من رفاقه فى غزوة على ضفاف الاردن ، وتخاصم مع قائد الغزوة على الاسلاب ، فتضارب الاثنان ، وطعن « برنار » غريمه طعنة كادت تودى بحياته ، فتألب عليه رفاقه ، وحاولوا القبض عليه ، ولكنه أفلت منهم ، وانطلق يعدو بين الصخور واختفى عن الانظار ..

وانقطعت اخباره منذ ذلك اليوم ، وظنه اخوه قد مات أو وقع أسيرا .. ولكنه فى الواقع لجأ الى احدى العشائر العربية الضاربة على ضفة الاردن الشرقية ، فاضافته ، وانتهى به الامر الى أن اعتنق الاسلام وعرف بين الناس الذين لجأ اليهم باسم «برنار الاحمر» فاحتفظ باسمه منقولا الى لغة القوم !

وانتهت الحــرب الصليبية الاولى باستيلاء الصليبيين على بيت المقدس فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٩٢ للهجرة .

وبعد نصف قرن ، هبطت الشرق حملة صليبية ثانية ، فاذا بابن «اوجين لروج» ــ واسمه «ريمون لروج» ــ يشترك فيها ، ويساهم فى حصار دمشق سنة ١١٤٨ ، بينما كان ابن «برنار الاحمر» ، واســمه «عبد الله الاحمر» ، يشترك فيها أيضا ولــكن فى صفوف المسلمين ، ويساهم فى الدفاع عن عاصمة القطر الشامى .

وظلت الاسرة مشطورة الى شطرين : شــطر يحارب تحت راية الغرب ، وشطر يحارب تحت راية الشرق .

فابن «ريمون لروج» ، واسمه «جان لروج» ، قتل فى معــــركة المنيطرة بلبنان سنة ١١٦٦ .

وقتل «عمار الاحمر» ، ابن «عبد الله الاحمر» وهو يحارب فى جيش «ابن المقدم» حاكم بعلبك ، ليصد غزوة صليبية فى سهل البقاع ، ســنة ١١٧٦ .

وشاءت الاقدار ان يلتقى فى صقيع واحد ، ويشترك فى معركة واحدة ويجرح فى مكان واحد «جاك لروج» ابن «جان لروج» ، و «قيس الاحمر» ابن «عمار الاحمر» ، وذلك فى موقعة حطين فى سنة ١١٨٧ .

وقد رزق كل من اوجين وريمون وجاك لروج ابنا واحدا ، ورزق كل من برنار وعبد الله وعمار ابنا واحدا أيضا . أما جاك وقيس فانهما لم يتزوجا ولم يرزقا بالطبع أبناء ..

وكان كل من الجدين والابوين والابنين والحفيدين يحمل فى عنقه بين الاذن اليسرى والكتف ، تلك اللطخة الحمراء التى توارثها أفراد الاسرة من قديم الزمان ، والتى اطلق عليهم من اجلها اسم «لروج» اى « الاحمــــر » .

***

ففى صيف سنة ١٠٩٩ ، افترق الاخـوان «أوجين» و «برنار» . واصبح كل منهما جدا لفرع منفصل لاسرة «لروج» . وفى صيف سنة ١١٨٧ ، اى بعد ذلك الفراق بنحو قرن كامل ، وضعت العناية الالهيــة وجها لوجه ، فى حومة الوغى ، الابن الوحيد لحفيد الجد الكبير «أوجين» والابن الوحيد لحفيد الجد الصغير «برنار» .

وما اعظم الفارق بين الصيفين : ففى الصيف الاول كان فـــراق وكانت هزيمة للمسلمين فى بيت المقدس . وفى الصيف الثانى كان لقــاء وكانت هزيمة للصليبيين فى بيت المقـــدس ايضا .. فى الصيف الاول انشا كل من الاخـــــوين المفترقين اسرة مستقلة عن أسرة اخيه ، وفى الصيف الثانى انقرضت الأسرتان معا بموت « جاك لروج » و « قيس الاحمـــــــــــــر »

فقد طاف فى النهار رسل الرحمة من الفريقين المتحاربين فى أرجــاء الميدان ، وجعلوا ينقلون القتلى لدفنهم ، والجرحى لعلاجهم ، فعثروا على جثتين متعانقتين فى كهف صغير : جثة الجندى المسلم ، وجثة الجنــدى الصليبى ..

وحاولوا ان يفرقوا بين الجثتين ليدفنوا كلا من البطلين فى مــدافن قومه ، فلم يتمكنوا : فقد تشابكت اذرعهما ، وتكالبت اصابعهمــا ، فى عناق أراداه أن يكون ابديا .

فكان لهما ما ارادا ، ودفنا فى حفرة واحدة ، فى المكان الذى وجدا فيه متعانقين .

يوم من أيّام صلاح الدين



«الله أكبر» تصاعدت من حناجر عشرات الالوف من فرسان الميادين وأبطال الحروب ، فكانت هتافا ، وكانت دعاء ، وكانت شكرا لله على ما أولى صلاح الدين الايوبى وجيشه المظفر من نصر وعزة وفخر. ودخل السلطان المدينة المقدسة : فحقق الآمال التى عقدها عليه العالم الاسلامى فى ذلك الوقت .

٢ تشرين الاول ــ اكتوبر سنة ١١٨٧ للميلاد ، الموافقة لسنة٥٨٣ للهجرة ذلك هو اليوم الذى سلم فيه الصليبيون بيت المقدس ، وأخلوا القلعة المعروفة ببرج الملك داود فاحتلها المسلمون ، وأمر صلاح الدين بأن يفتح باب الخليل ، المعروف ايضا باسم باب الملك داود ، ليدخل منه الجيش ويتسلم المدينة من غزاتها السابقين ، وما مر اسبوع على ذلك اليوم التاريخى ، حتى كان السلطان قد رفع أعلامه على جميع الاسوار والابراج ، وأصلح ما تهدم من قبة الصخرة والمسجد الاقصى، وغسلهما بماء الورد ، وادى فريضة الصلاة فى المكان الذى صلى فيه عمر بن الخطاب من قبل .

وفى اليوم السابع لدخوله المدينة المقدسة ، خرج صلاح الدين الى شوارعها ، ومعه رفاق الجهاد من وزراء وقواد وقضاة ، ليستطلع بنفسه حالة الجيش والسكان ، ومبلغ حرص رجاله على تنفيذ شروط التسليم التى فرضها على الصليبيين فقبلوها وتقيدوا بها .

وامام باب القلعة ، وقف صلاح الدين ورفاقه يشاهدون رحيل السكان الذين افتدوا أنفسهم بالمال ، عملا بقوانين الحرب المرعية فى ذلك العهد ، وتنفيذا لشروط الصلح .

عشرة دنانير فدية الرجل السليم ، وخمسة دنانير فدية المراة السليمة ، ودينار واحد فدية الطفل او الفتى دون سن المراهقة . اما الفقراء الذين لا يملكون مالا ، فقد رضى صلاح الدين بأن تخفض فديتهم على أن تدفعها جمعيات الرهبان الفرسان ، الغنية بأموالها واملاكها ، اما العاجزون والمرضى فتطلق حريتهم بدون فدية . واما الباقون ، فيدفعون الجزية أو يظلون فى الاسر .

لم يقدم الرهبان الفرسان على دفع الفدية بأكملها ، بالرغم من قدرتهم على ذلك ، فخرج من المدينة من خرج ، وبقى العاجزون عن الدفع فى بيوتهم يبكون وينتحبون .

وخاطب صلاح الدين الايوبى أخاه الملك العادل :

ــ ما قولك فى هذا ؟ ان القوم يخلون بشروط التسليم . وغنيهم يتخلى عن فقيرهم فى الشدائد . فهل نرجع عن العهد الذى قطعناه ، ونأمر بأخذ المال عنوة ممن يختزنونه ويضنون به ؟

فاجاب الملك العادل :

ـ لقد مرت بنا ظروف مثل هذه من قبل ، وضن اغنياؤنا بالمال على الفقير ، مخالفين بهذا احكام كتابنا ، كما يخالف هؤلاء الرهبان الآن احكام كتابهم ، وقد كان العدو فى تلك الظروف قاسيا علينا . فهل يجمل بصلاح الدين ان يقتدى به ؟

ـ ان هذا لن يكون يا أخى ! ليطلق سراح خمسمائة من الفقراء بدون فدية ، لوجه الله ، وطلبا للثواب .

ـ واذا كان مولاى يحرر خمسمائة من الأسرى ،وهو التقى الصالح الورع ، أفلا يسمح لى بأن يتحرر ايضا ألف فقير من هؤلاء المساكين ، باسمى انا ؟ فان حاجتى الى الثوات عند الله لاشد واقوى ..

ـ ليطلق سراح الف فقير بدون فدية ، باسم الاخ الملك العادل ...

ومر أمام صلاح الدين ألف وخمسمائة من الفقراء ، فى طريقهم الى الحرية ، وارتفعت فى أجواء القدس هتافات لم يذكر التاريخ مثيلا لها من قبل ولا من بعد .

الف وخمسمائة من فقراء الافرنج يدعون الله أن يحفظ سلطان المسلمين ، ويكتب له النصر المبين والعمر الطويل .

وأمر صلاح الدين الأيوبى بأن ترافق الراحلين عن المدينة المقدسة فصائل من فرسان الحرس ، للسهر عليهم فى الطريق ، ومنع كل اعتداء عليهم ، حتى يصلوا بأمان الى الثغور الباقية فى يد الصليبيين على سواحل فلسطين ولبنان .

هذه أولى مكرمات صلاح الدين فى ذلك اليوم .

***

ـ ليترجل الفرسان عن خيولهم وليقفوا لحظة خاشعين امام هذا المكان ، الذى يعيد الى الاذهان ذكرى عيسى بن مريم ، عليه السلام، ولتكن كنيسة القيامة هذه ، من المخلفات التى يحرص عليها المسلمون حرصهم على القبة المشرفة والجامع الأقصى .

فترجل الفرسان أمام مدخل الكنيسة التاريخية ، تنفيذا لأمر صلاح الدين ، وأحاطوا بالسلطان مطرقين صامتين .

ورفع صلاح الدين راسه وقال :

ـ جاءنى أمس وفد من الامراء ، يطلبون هدم هذا المكان وازالة معالمه : وانهم لمخطئون . فما جئنا الى هنا للتخريب والتدمير . ولو



صلاح الدين الأيوبى فى مطلع الشيخوخة

قوضنا هذا البناء لاقترفنا عملا لن يرضى عنه الله ، ولما منعنا النصارى من ان يحجوا الى هنا ، ويستمطروا علينا اللعنة : سيبقى هذا البنـــاء قائما ، كما اراد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ان يبقيه قائما .

وعلا الهتاف بحياة السلطان مرة أخرى من أفواه المسلمين والنصارى على السواء . وأخذ الملك العادل يد أخيه وقبلها وهمس صلاح الدين فى أذنه :

ــ سيكون لهذا التسامح فى نفوس القوم وقع أشد من وقع السيوف فى صدورهم .. وابقاء كنيسة القيامة فى مكانها سيدر على المســـلمين ارباحا كثيرة مما سوف ينفقه الحجاج فى هذه المدينة من أموال !

وشق الصفوف فى هذه اللحظة فارس من حاشية السلطان واسرع الى صلاح الدين قائلا :

ــ مولاى ، ان البطريرك هرقليوس الرومى يستعد للرحيل عـــن المدينة حاملا معه اكداسا من التحف والصلبان والمصـــابيح والادوات الكنسية الغالية . وان المشرفين عـــلى تفتيش الراحلين يمنعونه من الخروج بهذه الثروة الطائلة باعتبارها من الأموال غير المنقولة التى تعدها شروط الصلح ملكا للغزاة الفاتحين .

فنظر صلاح الدين الى الرجل نظرة تمثلت فيها نفسه الابية النبيلة واجاب مبتسما :

ــ دع الكهنة والرهبان وما يستطيعون حمله . فالأموال غير المنقولة هى التى لا يقوون على حملها .. واذا كنا لا نحرمهم من أماكن العبـادة ومن مواصلة صلواتهم وطقوسهم فهل تريد أن نحرمهم من الادوات التى يستخدمونها للصلاة فى تلك الاماكن ؟

فتقدم أربعة من الرهبان وانحنوا أمام صلاح الدين شاكرين وقـال كبيرهم :

ــ اسمح لنا اذن أيها المولى بالبقاء داخل كنيسة القيامة هـذه واقامة طقوسنا الدينية فيها ، واعفنا من كل جزية وضريبة .

فأجابهم صلاح الدين :

ــ سيكون لكم ما تريدون ، ولن يقال ان صلاح الدين رفض اليوم طلبا لواحد منكم .

فانحنى الرهبان الاربعة مرة اخرى ودعوا لسلطان المســـلمين بالبقـــــاء .

وهذه هى المكرمة الثانية لصلاح الدين فى ذلك اليوم .

***

واصل السلطان طوافه فى المدينة المقدسة ، وانطلق المنادون يشقون له الطريق ، ويدعون صاحب الحاجة الى بسط حاجته ، وصاحب الشكوى الى رفع شكواه ، بلا تمييز بين مسلم ومسيحى ، وصديق وعدو ، وشرقى وغربى .

وفى طريق الجلجلة ، تقدم من السلطان اربعة رجال ، كل منهم يصيح طالبا من صلاح الدين العدل والانصاف .

هذا شيخ مسيحى مسن ، يمسك بذراع شاب مسلم ويقول بصوت متهدج :

ــ اذا كان سلطانكم صالحا عادلا ، فلن يسكت على ما صنعته بى يا خائن !

سأله صلاح الدين ما الخبر فقال الرجل :

ــ أيها المولى . أنا فرنسى من بلدة تولوز . اقيم فى هذه المدينة منذ عشرين سنة . وقد جاءنى هذا الشاب منذ سنتين ، هاربا من مدينة عسقلان لعمل ارتكبه يستحق الجزاء . ودخل مدينة القدس خلسة بدون أن يشعر به أحد من الحراس المسيحيين ، فأضفته فى بيتى وكتمت خبره عن الناس ، ولم أطلب منه أن يقص على قصته بالتفصيل بل اكتفيت بما رواه عن هربه من وجه اخوانه المسلمين . وقد اقام فى بيتى هذه المدة كلها ، يأكل ويشرب وينام ، وما فعلت هذا الا تمشيا مع واجب الضيافة الذى تعلمته من العرب فى هذا الشرق . ولكن عندما استرجعتم القدس ، وخسر الصليبيون كل شىء ، وشعر هذا الشاب بأننى أصبحت ضعيفا واصبح هو قويا ، انقلب على وطردنى من بيتى واستولى على كل شىء فيه . فهل أنتم تطلقون الايدى بالسلب والنهب وتقرون خيانة الضيف للمضيف ؟ أم تطبقون علينا شروطا قبلناها وارتبطتم بها ؟ ان هذا الرجل خائن وسارق . فهل تعاقبه يا صلاح الدين ، أم تسكت عن خيانته وسرقته .

لم يتردد صلاح الدين لحظة فى الجواب . بل التفت الى الملك العادل وقال :

ــ اعيدوا الى هذا الشيخ بيته وماله ، واعفوه من دفع الفدية أو الجزية ، واسجنوا هذا الشاب حتى ننظر فى أمره ..

والتفت السلطان الى الرجلين الآخرين وسألهما ما يريدان .. فقال احدهما :

ـ انا محمود البصرى يا مولاى .. منذ ثلاثة اعوام ، سقطت فى معركة بيسان جريحا . واشرفت على الموت . فانقذنى هذا الرجل وهو من الفلاحين النصارى ، من ابناء سردينيا . وقد التقيت به هنا،بعد دخولنا بيت المقدس منتصرين . وهو فقير لا يملك الفدية ، ولم يدفعها عنه احد . فجئت اليك يا صلاح الدين طالبا أن تطلق سراح هذا الرجل وتعيد اليه حريته ، لانه انقذ منذ ثلاثة اعوام حياة جندى من جنودك ، لا يزال الى الآن يحارب تحت لوائك ويشاركك فى انتصاراتك .

فقال صلاح الدين :

ـ ما اسم الرجل ؟

ـ برتران موليه ...

ـ انت حر يا برتران موليه .. اذهب الى حيث تشاء . أو ابق فى هذه المدينة حرا طليقا معفى من كل قيد .

وهذه مكرمة ثالثة لصلاح الدين الايوبى فى ذلك اليوم .

***

وصل صلاح الدين فى طوافه الى أسوار الحرم الشريف ، وعند الباب الكبير المؤدى الى البهو الفسيح ، فوق التل المنبسط الذى شهد أول دعاء توجه به عمر بن الخطاب الى الله من قبل .

وقف السلطان لان فريقا من المقاتلين العرب من ابناء البادية كانوا قد سدوا الطريق ، مشتملين بعباءاتهم ، ملثمين بكوفياتهم وبأيديهم السيوف اللامعة .

ـ من هؤلاء ؟ وماذا يريدون ؟

قال صلاح الدين هذا وقطب جبينه ، لانه كان يمتعض من رؤية رجال البادية ، ويأخذ عليهم عدم خضوعهم للاوامر وجنوحهم الى الفوضى ، ولكن شابا خرج من صفوف البدو ، واعاد سيفه الى غمده، وازاح عن وجهه اللثام ، فاذا به فتاة بارعة الجمال ، براقة العينين وضاحة الجبين :

فسأل السلطان مندهشا :

ـ أمرأة ؟...

ـ نعم ، امراة يا صلاح الدين ، امراة تصحبها نساء مثلها ، نحن عشرون امراة ، وكنا بالامس ثلاثين !

والتفتت الفتاة الى هذا الرهط الملتف حولها ، فاذا باللثم تتساقط عن الوجوه ، واذا بكل لثام يكشف عن جمال بارع ، وعينين براقتين ، وجبين وضـــاح .

ولم تترك الفتاة فرصة لصلاح الدين ليخاطب النساء السـافرات بل استطردت قائلة :

ـ نحن من بنات بادية الشام ، جئنا من مختلف العشائر والبطون لنأخذ نصيبنا من الجهاد فى سبيل الله ، وقد تنكرنا فى اثواب الرجـال كما فعلت مئات من نساء البادية فى عهدك يا صلاح الدين ، كنا ثلاثين فاستشهدت منا عشر نساء فى المعارك ، وتسلمت انا «فدوى العاملية» قيادة هذه الفصيلة بعد مصرع امى «صداحة العاملية» وما جئنا اليك الآن الا لكى نطلعك على سرنا وقد حفظناه مكتوما فى صدورنا مدةاربعين شهرا . فاشملنا بعفوك ، واسمح لنا بأن نعود الى البادية التى نحن اليها ، ونتوق الى استنشاق هوائها ، واطلاق اعنة خيولنا فى فلاتها.

رفع صلاح الدين طرف كمه ، ومسح دمعة ترقرقت فى عينيه ، وقال :

ـ حفظكن الله يا بنات البادية واخوات الرجال ، ان صلاح الدين لفخور بكن . وهو يمنح كلا منكن خمسمائة دينار ، وفرسا اصـيلا ، وسيفا ورمحا . فعدن الى مضاربكن بحراسة الله .

رفعت الفتاة فدوى سيفها فى الهواء ، ورفعت رفيقاتها سيوفهن مثلها ، وقالت العاملية :

ـ مولاى !! لم نشترك فى الجهاد لكى نتقاضى ثمن الدم الذىبذلناه فاسمح لنا بأن نرفض المال الذى اغدقته علينا ، وبأن نكتفى بالخيول والاسلحة فهى اكثر فائدة لنا من الدنانير . وسوف نروض الخيــول ونرهف السلاح ونشحذه للمعارك المقبلة .

فترقرقت دمعة ثانية فى عين صلاح الدين ، وضم الفتاة اليه ، وطبع على جبينها قبلة شعرت كل فتاة بدوية بانها على جبينها طبعت.

وهذه مكرمة رابعة لصلاح الدين فى ذلك اليوم .

***

جلس صلاح الدين بعد الانتهاء من طوافه ، ومن حوله رفاقه وقد انهكهم التعب ، فى الدار التى اتخذها مقرا مؤقتا له . وبعد ان توجه الى الله بالشكر على ما اسبغه عليه من نعم ، سأل اخاه الملك العادل :

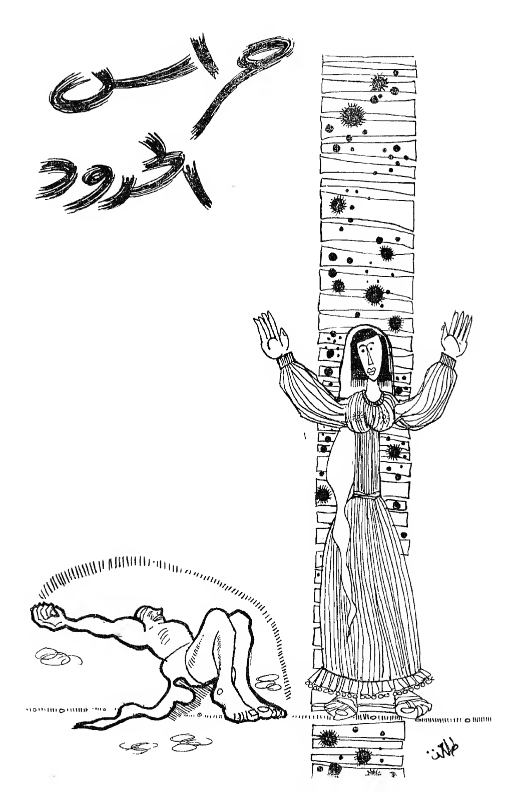
ــ ماذا صنعتم بنساء الافرنج ؟

ــ لقد نفذنا أوامرك يا مولاى ، واحطناهن بكل عناية وعاملناهن بكل رفق ...

ــ اليكم ما اريده منكم وارغب فى ان تنفذوه فى الحال : ان القائد الصليبى «باليان» الذى دافع عن بيت المقدس رجل صادق شهم وفى وزوجته «مارى» سيدة فاضلة كانت من قبل زوجة لملك من ملوك القوم ، قضى نحبه ، فتزوجت من بعده «باليان» هذا الذى احترمه .. فليطلق سراح السيدة مارى ، وليطلق ايضا سراح الملكة «سيبيلا» زوجة ملك الافرنج الذى هزمناه وأسرناه فى حطين . ونأمر ايضا بأن يعفى من الفدية أو الجزية جميع الخدم من رجال ونساء . وجميع الجنود الذين كانوا يحرسون الملك والقائد «باليان» ونساء الامراء الافرنج ، وقد علمت أن فى بعض الحصون التى انتزعناها من القوم لفيفا من النساء يحتجزهن رجالنا اسيرات أو سبايا ، فليطلق سراح اولئك النسوة الضعيفات ، واذا الح الامراء أصحاب الحصون من المسلمين بوجوب دفع الفدية ، فلتدفع لهم من بيت المال ، وعليكم ان تمدوا فصائل من الفرسان للبحث عن الاسيرات والسبايا واعادتهن الى الثغور معززات مكرمات . فان مقابل هذا لكم ولنا الثواب عند الله .

وعادت الملكة «سيبيلا» الى زوجها الملك ، وعادت الملكة السابقة «مارى» الى زوجها القائد «باليان» وخرجت من حصون المسلمين مائة وعشرون من زوجات الامراء الافرنج واخواتهم وبناتهم ، ورحل عن بيت المقدس ثلاثمائة من الحرس الصليبى والخدم والوصيفات . وذهب «باليان» قائد بيت المقدس الذى قاوم صلاح الدين ثم سلم المدينة له ، الى قلعة داود ، وشكر السلطان العزيز الكريم على ما ابداه من سخاء وتسامح وإباء .

وكان تحرير النساء من الاسر والسبى مكرمة خامسة لصلاح الدين الايوبى فى ذلك اليوم .



بلغ التوتر اشده فى العلاقات بين السلطان صلاح الدين الايوبى والامراء الصليبيين فى جنوب البلاد الشامية وشمالها . وفى سنة ١١٧٩ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٧٥ للهجرة ، عادالفريقان الى تبادل اعمال الغزو والسطو بصورة دلت على ان الاصطدام الحاسم واقع فى القريب العاجل ولا مفر منه . فاما أن يقضى صلاح الدين على الدولة الصليبية فى بيت المقدس ، واما ان يهزم فى ذلك الصراع الاخير ،فتنكمش دولته على نفسها ، ويوسع الافرنج حدود مملكتهم ما شاءت لهم مطامعهم . .

شيد الملك بلدوين الرابع ، الجالس على عرش بيت المقدس ، سلسلة من الحصون والقلاع على طول الحدود الفاصلة بين مملكته والدولة الشامية فى شمال فلسطين وجنوب جبل عامل وساحل لبنان .

وتحولت المنطقة الجبلية الوعرة ، من حيث تنحدر مياه الغدران والينابيع لتكوين نهر الاردن ، الى قواعد حربية متواصلة الحلقات يسيطر كل من الفريقين المتحاربين على جزء منها ، ويستعد فيها للجولة الفاصلة . .

كان خط الافرنج يمتد من ساحل البحر عند ميناء صيدا الىداخل الأرض السورية عندبانياس ومنفذ سهلالبقاع فى جنوبه وكانتحامياتهم معتصمة فى قلاعها وحصونها : مرج عيون ، والطيبة ، وهونين ، وتبنين ، وقلعة يعقوب وغيرها من تلك السلسلة التى ربطوا حلقاتها وشدوها بعضها الى بعض .

اما صلاح الدين فقد اختار لرجاله دائرة ضيقة أهم مواقعها « تل القاضى » وبلدة « بانياس » ومن هناك راح يعد العدة لشنهجمات متقطعة على مراكز الافرنج لمعرفة مدى استعدادها للمقاومة من جهة ولمنعها من توحيد حلقاتها وانشاء خط دفاعى متين يصعب عليه اختراقه فيما بعد .

وانطلق فرسان صلاح الدين من تلك المكامن وراحوا يضربون ضرباتهم نحو الجنوب حينا ونحو الغرب احيانا ثم يعودون بالاسلاب والغنائم فضلا عن المعلومات المفيدة التى يحملونها معهم عن الاماكن التى غزوها والقوات الافرنجية التى دافعت عنها .

وما كان يفعله رجال صلاح الدين ضد خصومهم كان رجال بلدوين يفعلونه أيضا ، فيردون على كل هجوم بهجوم مضاد الى الجنوب او الى الغرب ، بغزوة الى الشمال أو الشرق .

وكان لابد من معركة حربية كبيرة تجعل احدى الكفتين ترجح

على الاخرى وتحصر السيطرة على منابع « الاردن » وطريق « البقاع» في يد فريق دون الآخـــــــر ..

وهذا ما اعتزم صلاح الدين الاقدام عليه في سنة ١١٧٩ ، وفي قصره بدمشق عقد السلطان مجلسا حضره فريق مختار من امراء الجيـــش وحكام المقاطعات . وبسط لهم صلاح الدين خطته باسهاب فوافقوا عليها جميعا وكرروا اداء يمين الطاعة للسلطان . واقسموا على تنفيذ أوامره وبذل الارواح في سبيل الاهداف التي وضعوها كلهم نصب اعينهم

وزع صلاح الدين قواته المهاجمة ، فسارت كل قوة الى الهـدف الذي حدده لها ، على ساحل البحر ، او في شمال سورية ، أو في المناطق الجبلية حيث اعتصم امراء الافرنج في حصونهم المنيعة ، وقرر أن يسير بنفسه على راس القوة التي اعدها لتحطيم سلسلة القلاع في الجنـوب على حدود الدولة الصليبية في ارض فلسطين المقدســة

وفي العاشر من شهر حزيران يونيو سنة ١١٧٩ ، اشتبك الفريقان في معركة عنيفة عرفت بمعركة « مرج عيون » دارت الدائرة فيهـا على جيش الملك بلدوين الرابع وامرائه الذين خفوا من كل صـــوب لشد أزره ، فتفرقت فلول ذلك الجيش هائمة في الجبال والوديان ، ولجـأ بعضها الى قلعة الشقيف في جبل عامل ، ووصل بعضها الى صـــيدا وبيروت ، وعادت البقية الى بيت المقدس حاملة خبر الكارثة وما اصاب خط الدفـــاع في شمال المملكة من تصدع يشبه الانهيار .

وفي اثناء المعركة ، وقع حادث شاءت الاقدار أن تجيءعواقبهسليمة بالنسبة الى السلطان ، فلا يقتل في معركة مرج عيون الرجل الـــذي كتب له ان ينتصر بعدها بثمانية اعـــوام في معركة حطين الفاصلة

والذي حدث في معركة مرج عيون ان صلاح الدين خاض القتـال بدون مبالاة للخطر كعادته ، فاندفع رجال حرسه وراءه كما كانوا يفعلون دائما لنجدته اذا مادعا الداعي الى نجدة ــ وقد دعا اليها في غمـــرة للقتال في مرج عيون .

كثيرا ماكانت النساء العربيات الشاميات يلحقن بالجيـــوش في عهد صلاح الدين وغيره من الملوك والسلاطين وياخذن نصيبهن مـــن القتال دفاعا عن الحمى ..

وهذا مافعله رهط من بنات دمشق لحقن بالرجال الذين تطوعوا للقتال في مرج عيـون .

ولاحظ صلاح الدين ، في وسط المعركة ، ان بعض النسوة معرضات لخطر داهم ، فقد أحاط بهن فريق من فرسان الافرنج محاولين اسرهن

فهرع السلطان اليهن لفك ذلك الحصار عنهن ، وتحول عملاق من أولئك الفرسان نحو السلطان بينما كان صوت امراة يرتفع مـــرة بعد مرة : « .. سامر !.. سامر !.. السلطان السلطان »

وفى اقل من لمح البصر ، ارتفعت ذراع وارتفعت اخرى ، وهـــوى سيف ثم هوى سيف آخر : فقد رفع العملاق الافرنجى ذراعه وهــوى بسيفه على رأس صلاح الدين ، ولكن ذراع «سامر» كانت أسبق مــن ذراعه ، فارتفعت ، وهوى سيف الفارس العربى فالتقى النصـــلان عند كتف صلاح الدين .. وأنقذ السلطان ، ان لم يكن من موت محقق ،فمن اصابة خطرة ، لان ذلك العملاق لم يكن غير « كونراد فيلان » الرجـل الذى كان بلدوين يفاخر بانه ابرع ضارب بالسيف فى جيشه ..

هوى السيفان ، وكبا الجوادان فهوى الفارسان على الأرض ،وهنا لعب القدر لعبة ، قد تكون الأولى من نوعها فى التاريخ :

فقـــد نفذ سيف كل من الفارسين فى صدر الآخر وهما يسقطان على الأرض ..

وامام هذا المنظر المؤثر الذى لم تقع الأعين على مثله فى ميادين القتال .. وقف الفرسان جميعا مشدوهين مذهولين ..

ورفع السلطان سيفه لتحية البطلين :

البطل الذى أراد قتله ، والبطل الذى انقذه ، وكان الاثنان يلفظــان لانفـــــاس الأخـــــيرة ..

وشقت الصفوف امراة تصيح : « الى الجنة ياسامر .. الــى الجنــــة ! .. »

والقت بنفسها على جثـــة الفـــارس العربى تغمرها بالدمـوع والقبـــــلات ..

هى « خديجة » اخت القتيل : من بنات دمشق المتطوعات ، لحقت بالجيش مع اخيها الذى قتل وهو يدفع الخطر عن السلطان ، وزوجهـا الذى لايزال يقاتل فى احدى جبهات الميدان الفسيح

وقال صلاح الدين : « لينقل كل فريق بطله القتيل بعيـدا عـن نطـــاق المعـــركة »

وحمل فرسان الافرنج قتيلهم « كونراد فيلان » وقـد تجمـدت اصابعه على قبضة سيفه .. وحملت النساء قتيل العـــرب « سامر الاعسر » وقد تجمدت ايضا اصابعه على قبضة ســــيفه ..

وسأل صلاح الدين : « ارى هذا البطل وقد حارب بيده اليسرى

ولا يزال قابضا بها على سيفه ، فما السبب ، وهل اصيب بجــراح فى يمينه فنقل السيف الى يده اليسرى ؟ »

وجاء جواب خديجة : « أيها المولى ان أخى مصاب بشــلل فى يده اليمنى ، وكان منــذ الصغر يستخدم يسراه بدل يمناه .. ولهذا سماه الناس سامر الاعسر ! »

***

هزم صلاح الدين جيش بلدوين الرابع فى معركة مرج عيــــون ووضع بعد ذلك الفوز خطة جديدة مهد بها لانتصاراته التالية ، وكان آخرها فى حطين سنة ١١٨٧ ــ الموافقة لسنة ٥٨٣ للهجــرة .

وقامت تلك الخطة على أسس درسها السلطان النابغة وفحصــها واقرها بالاتفاق مع ذوى الرأى ممن كان يستشيرهم ،ويعمل بارشاداتهم واهم مافى تلك الخطة السيطرة على مياه الينابيع والغدران الخــارجة من بطون الجبال ، الجارية فى الوديان ، التىمنها يتالف النهر الكبــير الذى تسرى الحياة بفضله فى الضفتين الشرقية والغربية للارضالمقدسة: نهــر الاردن ..

وترمى الخطة التى وضعها السلطان ايضا الى السيطرة على المنافذ المؤدية من ارض الجليل بشمال فلسطين الى سهل البقــاع وطريــق دمشق والجنان الشامية . فمن تلك المنافذ ينوى الافرنج أن يتسللوا او يندفعوا الى داخل البلاد السورية ، وبفضل المياه الاتية من الجبــال يضمنون لانفسهم الرخاء باستثمار الارض والاكثار من الزرع والعناية بالمراعى وتربية المواشى والخيــــول ..

وفى بلدة بانياس ، وعند منبع الغدير الذى يعرف باسم هـــذه البلدة ، وعند منبع الغدير الآخر الذى يعرف بالحصبانى شـيد صلاح الدين حصنين صغيرين ، احاطهما ببيوت مبنية بالحجر وطلب منالناس ان يتخذوا المكانين مقرا لهم ، فهرع السكان الى الحدود حيث انصرفوا الى الاعمال الزراعية وتربية الماشية ، وعنوا فى آن واحد بحراســـة الحدود كيلا يتسرب منها الافرنج من داخل دولتهم بفلسطين

وتولى القيادة فى تلك المنطقة بأمر من السلطان ، الفارس الذىنالفى المعارك السابقة شهرة جعلته أهلا لذلك المنصب : سالم الحلبى ، زوج خديجــة اخت سامر الأعسر الذى قتل فى معركة مرج عيون لينقــذ السلطان صلاح الدين الأيوبى .

وحالف التوفيق « سالم الحلبى » ورجاله من الفرسان ، واعوانه من سكان القرى والمزارع ، فصانوا حدودسورية الجنوبية وحافظواعلى

مياه الينابيع والغدران فى تلك المنطقة ، وسيطروا على المنافذ المــؤدية من الجنوب الى الشــــمال ومن الشمال الى الجنــوب .

وفى معركة حطين ، قتل سالم الحلبى فلحق بأخى زوجته الـذى قتل من قبل فى مرج عيـــون ..

مات سامر الأعسر ولكن بعد أن أنقذ السلطان من الموت .. ومات سالم الحلبى ، ولكن بعد أن أدى الأمانة وصان الحدود .

واراد صلاح الدين أن يكافىء خديجة اخت سامر وزوجة ســالم، وان يخصص لها مكانا فى قصره بين نساء أسرته .. ولكنها رفضـــت شـــاكرة وآثرت العودة الى الأماكن التى حاربت فيها وجاهدت مــع زوجهـــا واخيهـــا ..
وكان لخديخة اربعة ابناء ، شبوا وكبروا وظل الناس مدة من الزمن يســمونهم « أبناء حراس الحـــدود »


هدية العيد



ضرب صلاح الدين الأيوبي مضاربه في السهل المنبسط بين البحيرة والجبل ورتب جيشه للقتال ، واستعد للقاء العدو في اليوم التالي لقاء لابد ان يسفر عن نتيجة حاسمة : فاما ان يهدم العرب في المعركة الفاصلة دولة اورشليم الصليبية ، واما ان يقضى على جيوشهم قضاء لاقيام بعده .

ودارت رحى القتال بين الفريقين فدارت معها الدائرة على الصليبيين .. ووقع الملك وقواده أسرى في أيدى العرب ، وعرفت تلك الموقعة العظيمة في التاريخ باسم موقعة « حطين » عند العرب وموقعة «طبرية» عند الافرنج ..

وكان ذلك في الرابع من شهر يوليه سنة ١١٨٧ للميلاد الموافقة لسنة ٥٨٣ للهجرة .

ولقى الملك الاسير وقواده من الملك ناصر صلاح الدين يوسف معاملة حسنة أطلقت السنتهم بالمديح والثناء . فان العرب لم ينزلوا عقابا بأحد الأبطال الذين حاربوهم في تلك المعركة . ولم يمسوا بسوء غير الأمراء الذين عرفوا من قبل بخروجهم على تقاليد الحرب المرعية في ذلك الوقت ..

وكان بين اولئك الذين عبس القدر في وجوههم ووقعوا في الأسر شاب من الأشراف يدعى « شارل دى بوفال » أسره صلاح الدين بنفسه في معركة حطين ، وهو يثب عليه منتضيا سيفه ، وحوله طائفة من فرسان العرب يحاولون عبثا القضاء عليه قبل ان يصل الى مولاهم .

اراد صلاح الدين كعادته ان يتحدث الى الأسرى بعد ان وضعت الحرب أوزارها الى حين . فجيء ببعضهم اليه ، وبينهم البطل الفرنسى الذى أوشك ان يفتك بسيد أبطال العرب في المعركة .

ودعاه صلاح الدين الى الجلوس فقال الفارس الفرنسى :

ـ اذا كنت أيها المولى تدعونى الى الجلوس شفقة منك على لأننى جريح ، فاعلم أن الجرح الذى أصابنى لايمنعنى من الوقوف . وانني لو افلت اليوم من الاسر لعدت غدا الى الميدان .

فابتسم صلاح الدين وأجاب :

الآن فقط تذكرت انك جريح أيها الجندى الشجاع . وما دعوتك

الى الجلوس الا لأننى ذكرت فعالك فى المعركة ، أما الآن فاننى انهض من مجلسى احتراما لجرحك وادعوك الى اخذ مكانك بجانبى .

فصعق الفرنسى امام ذلك الخلق النبيل ، وجلس صامتا ينظر الى ذلك الملك العظيم .. الذى يعرف قدر الأبطال ويضع احترامهم فوق كل اعتبار .

وقال صلاح الدين :

ــ هل تفكر من الآن فى الهرب من الأسر ولم تمض بعد عليك ايام فى هذه القلعة ؟

ــ نعم افكر فى الهرب ولن اقطع على نفسى عهدا بالبقاء هنا ..

ــ الا تعتقد ان قومك سيفدونك مع من يفدونهم من الأسرى ؟ .

ــ لاأرغب فى ذلك بل أعرف كيف افلت منكم دون ان يفدينى احد ..

ــ أليس لك فى صفوة الافرنج أحد من اهلك .

ــ لى اخ يلبس ثوب الرهبان فى مستشفى القديس يوحنا بالقدس .. وهو من رهبان « الاوبتال » الذين يخدمون المرضى ويواسونهم ولا يرفضون لهم رغبة ايا كانت ، ولا يردون لهم طلبا مهما بلغت خطورته . ولى أيضا ..

ــ ولك ايضا ؟

ــ خطيبة .. فتاة فرنسية تدعى « جنفيف » رافقتنى من بلادى الى هذه الارض المقدسة . وقد تعاهدنا على ان نعقد زواجنا فى اورشليم . واتفقنا على ان تدخل الفتاة الدير او تنصرف الى مواساة الجرحى فى مستشفى القديس يوحنا اذا شاء الله أن أسقط فى المعارك قتيلا . هذان هما الشخصان الوحيدان ، اللذان يهمنى امرهما فى صفوف الافرنج . والآن ، بعد أن عرفت منى ماتريد ان تعرف أيها المولى ، مر رجالك ان يعودوا بى الى سجنى .

اصغى صلاح الدين الى الشاب دون أن يأتى بحركة او تبدو منه اشارة ، ثم أمر رجاله بان يعودوا به الى سجنه، وقال له وهو يهم بالانصراف :

ــ سوف تغير رأيك فينا ياهذا ، وسوف نعلم من ناحيتنا اذا كـان ماتقوله عن جماعة « المستشفى » صحيحا ام لا ..

***

وفى مساء يوم من أيام الشتاء ، طرق باب مستشفى القديس يوحنا فى القدس الشريف ، رجل عليه ثياب الحجاج النصارى وبيده عـكاز يتوكأ عليـه ، وقد علق فيه ما يحمله الحجاج عادة من ماء وزاد .

فتح له الرهبـان باب المستشفى ، وكان صلاح الدين قـد أمـر بابقائه فى القدس ولم يتعرض للرهبـان المقيمين فيه ، وسمح للحجاج النصارى بان يترددوا عليه متى شاءوا . فدخل الغريب وطلب مـن الرهبان ان يضيفوه ويعالجوه من مرض يشكو منه

رحب به الجماعة وأنزلوه فى حجرة دافئة ، وخصصوا لخـدمته واحدا منهم . وبعد ان استقر الرجل فى الحجرة ، خاطب الـراهب قائـلا :

ــ يقولون انـكم لاترفضـون لمريض طلبا وانكم تجيبونه الى جميـع رغباته ..

ــ هذا صحيح أيها الاخ العزيز ..

ــ اذن أرغب اليكم فى أن تعهدوا الى الاخ دى بوفال فى خدمتى..

ــ الاخ ايف دى بوفال ؟

ــ هو بعينـه ...

ــ سـيكون لك ماتريد ايهـا الاخ العـزيز ..

ــ وأن تعهدوا الى فتاة ممن يواسين المرضى فى الجناح الخـاص بالنسـاء فى ان تجيئنى كل يوم بما يلزمنى من ماء ..

ــ ولـكن النساء يقمن بخدمة النسـاء المرضى فقط

ــ أما قلتم انكم لاترفضون لاحد طلبا ؟

ــ سـيكون لك ما تريد أيهـا الأخ العزيز !

ــ ولتكن الفتـاة المرضـة جنفيف .

ــ سـيكون لك ماتريد أيهـا الأخ ..

وحمل الراهب الى رئيس الجماعة رغبة الغريب المزدوجة فـأمر

بان يعهد الى الاخ « ايف دى بوفال » فى السهر عليه وخدمته . والى المرضة « جنفيف » فى حمل المساء اليه كل يوم ثلاث مرات .

***

مضى اليوم الأول دون أن يتناول المريض الغريب طعاما ومضى اليوم الثانى دون ان يدخل فى جوفه غير الماء

وكانت المرضة والمرض يلحان عليه بأن يتغذى رفقا بصحته ،ولكنه ورفض بكثير من العناد ، قائلا ان هناك شيئا واحدا يرغب فيه ولا يرغب فى سواه ..

ــ وما هو ذلك الشىء ؟ قل .. وسوف نجيئك بما تريد ..
القى عليه ايف دى بوفال هذا السؤال عشر مرات

والقته عليه المرضة جنفيف عشر مرات أيضا .. واخيرا ، قال الغريب بعد تردد ، ولسانه يتلعثم :

ــ اريد أن اتناول غذائى لحما مشويا !

ــ المسألة بسيطة ايها الأخ العزيز !

ــ ولكن على شرط ..

ــ تكلم ..

ــ انكم تدعون أن المريض هنا لايرفض له طلب ..

ــ ونؤكد لك ذلك . اما أجبناك الى جميع رغباتك الى الان ؟ قل ماذا تريد ايضا ؟

ــ عند الرئيس الاعلى لجماعتكم جواد عربى اصيل ..

ــ نعم . جواد يحبه الرئيس كثيرا ولا يتخلى عنه مقابل كنوز العالم بأسره ..

ــ حسن جدا .. فانا أريد اذن أن آكل اليوم قطعة لحم مشوية من فخذ ذلك الجواد !

ــ انك تطلب شيئا عزيزا ... غير معقول ايها الأخ .. !

ــ اما قلتم انكم لاترفضون لمريض طلبا ؟

ــ سأعرض الأمر على الرئيس نفسه !

ـ أسرع واعـرض عليـه هذه الرغبة . وقل له اننى ان اتنـاول طعاما ، واننى سامتنع عن الغذاء الى ان يدركنىالموتجوعا اذا لم يجبنى الرئيس الى طلبى ويذبح جواده من أجـلى .

***

وبعد ساعة من ذلك الحديث بين الغريب والراهب ، عاد ايف دى بوفال ومعه الفتاة المرضة الى حجرة المريض ، وقال له :

ـ ان الرئيس يجيبك الى طلبك ، وقد أمر بذبح الجواد فى الحال ، واذا نظرت من هذه النافذة فانك ترى الرجال يسرعون الى مـربط الخيل للقيام بهذه المهمة .

حينذاك نهض المـريض الغـريب ووثب الى النافذة صـائحا بالقـوم :

ـ قفوا ولا تذبحوا الجواد فقد عدلت عن رغبتى !

ثم نزعن نفسه ثوب الحجاج النصارى ، فبدا فى ثوب عربى زاهى الألوان ، وارتسمت امارات الدهشة على وجهى الراهب والفتـاة . فقال الغريب :

ـ ان الرجل الذى يخاطبكما الان هو صلاح الدين الايوبى . وقـد اردت ان اعلم بنفسى صحة مايقال عن جماعتكم وعن عنايتكم بالمـرضى والجرحى والاغراب ، فعلمت الآن ماكنت راغبا فى علمـه !

***

وتناقل النصارى فى القدس خبر زيارة صلاح الدين لمسـتشفى القديس يوحنا متنكرا . وحمل الحجاج معهم الى أوروبا ذلك الخبـر عن « سـلطان المسلمين »

اما الملك الناصر ، بطل حطين وقاهر لوسينيان وهادم ممـلكة الصليبيين الاولى ، فقد عاد من القـدس الى الحصن الذى حبس فيه شارل دى بوفال فى بلاد الاسماعيلية . وعلى اثر عودته ، ارسـل فى طلب الأسير ودار بين الرجلين الحـديث الآتى :

ـ ايها الفارس الشـجاع . اننى فى حاجة الى واحد من رجـالكم لقضـاء مهمة يتعذر على رجالى قضاؤها . فهل تكون لها أنت ؟

ـ اذا كانت المهمة لخير ابناء قومى فاننى لها . واذا كانت لخـير قومكم فاننى أرفض القيـام بهـا !!

ـ انهـــا لخـــير الفريقين معا ..

ـ يمكنك اذن ان تعتمد على ..

ـ ساعطيك رقعة مختومة أحـرم عليـك الاطلاع عليها فى الطريق

ـ حســـــن ..

ـ وستذهب بتلك الرقعة الى بيت المقدس

ـ ساذهب ..

ـ وتسلمها الى رئيس جماعة «الأوبتال» فى مستشــفى القديس يوحنـــا ..

ـ ســـــــافعل ..

ـ نحن الآن على مقربة من موسم الأعياد عندكم ، فبعـد عشرة ايام يحتفل النصارى بعيد ميلاد السيد المسيح ..

ـ هذا صحيح ..

ـ يجب اذن أن تكون فى بيت المقدس ليلة العيد . وبعـد أن تقـضى المهمـــة وتؤدى الأمانة الى صاحبهـا ، تصـافح اخـاك وتـــرى خطيبتـــك ..

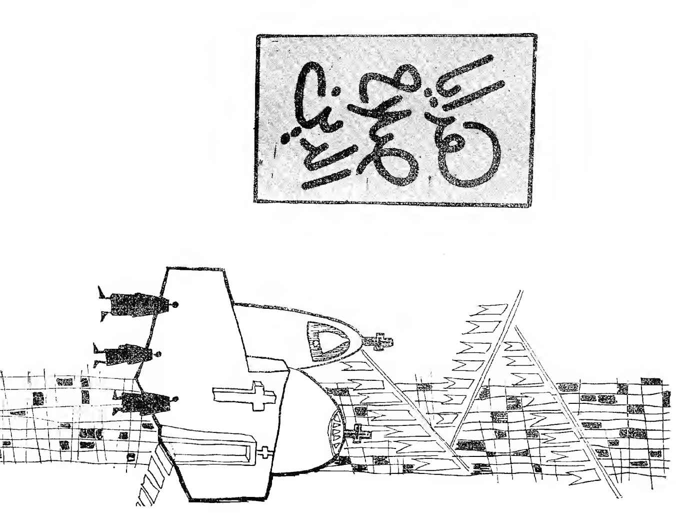
ـ اننى اثق بكلامك أيها المولى واصدق ان المهمة التى اتولى القيام بهـا فيها خير ومنفعة لقومك . أما اذا كان الأمر غير ماذكرت ، فاننـى اعـد نفسى فى حل من كل عهــــــد ..

ـ اذهب ! ..

***

دفع شارل دى بوفال الى رئيس الجماعة الرسالة الخطية التى أخذها من صـــلاح الدين . فقـــرأ الرئيس هذه الكلمـات باللغــــة اللاتينية :

« يشــــكر صلاح الدين يوسف رئيس جماعة المستشفى عـــلى حسن ضيافته . ويهنىء الراهب ايف دى بوفال على تفانيه فى خـدمة المرضى . ويعيد الى المرضة جنفيف خطيبها شارل دى بوفال . ويرجو ان تتقبل من « سلطان المسلمين » هـــذه الهـدية ـ هــــدية العيـــــــد ! .. »


مرايا
صلاح
الدين

كانت ليلة ممطرة حالكة السواد كثيرة البرق والرعد ، وكان المسيحيون الباقون فى « بيت المقدس » بعد سقوطه فى يد صلاح الدين الايوبى ، يحتفلون بعيد الميلاد ، للمرة الاولى ، فى ظروف تكتنفها الكآبة وجو لاتتجاوب فيه دقات الاجراس ورنات النواقيس.

وكان البرد شديد الوطأة على المساكين المعوزين ، الذين حرموا من الثياب الواقية ووسائل التدفئة .

جلس « جرفيه » وزوجته « تريز » وابناؤهما الاربعة على حصير ، حول كومة من الحطب اشتعلت فيها النار ، وارتفع منهـا الدخان فملأ ارجاء البيت الحقير ، المؤلف من ثلاث حجرات ضيقة عاشت فيها تلك الاسرة الافرنجية أعواما كانت مفعمة بالسعادة والخير والهناء ، ثم مالبثت ان حل بها الفقر والبؤس والشقاء ..

وراحت تريز ــ وقد انقبض صدرها ، وامسكت عن الكلام مخافة أن تغلبها العبرات ــ تنظر الى زوجها بعينين يرتسم فيهما القلق والجزع ولسان حالها يقول : « اى طعام نقدم لهؤلاء الصغار غدا ، ليلة عيد الميلاد ؟ »

وكأن الرجل قد فهم من نظرات امرأته ما تريده منه ، فغمغم قائلا :

ــ وا أسفاه ..! انى لن استطيع أن اقدم لهم شيئا ، الا بمعجزة أو بجريمة !

***

كان « جرفيه فوريل » جنديا فى صفوف الافرنج ، وقد بترت ساقه على اثر جرح عميق ، فهجر مدينة طرابلس التى عاش فيها وانتقل الى « بيت المقدس » حيث عرف باسم « جرفيه مقطوع الساق » وعين حارسا فى احدى الكنائس فحرم الرجل من عمله بعد استيلاء صلاح الدين على مملكة أورشليم وعاصمتها ، واصبح عاجزا عن ضمان القوت لأولاده وزوجته ، فذاقت الاسرة انواع الحرمان وعرفت الجوع كيف يكون ..

وفى تلك الليلة السوداء ، التى كان فيها الرجل والمرأة والاولاد يفكرون فيها كيف يقضون العيد ، ومن اين ياكلون ، شعر « جرفيه » التقى الورع بالشكوك تنساب الى نفسه ، وتكاد تزعزع ايمانه فتمتم مرة اخرى : « معجزة .. او جريمة !»

فانتفضت الزوجة التى لم ينل الفقر من ثقتها بالله واستجمعت قواها وقالت بلهجة ثابتة : « لنلجأ الى الصلاة ياجرفيه ، فان السيد

المسـيح الذى نحتفـل غدا بذكرى ميـلاده لـن يتخـلى عنـا .. ! »

فى اللحظة ذاتها وفى بيت مجاور ، كان صـوت آخر يقول أيضـا : « لنلجأ الى الصلاة .. فان الله لن يتخلى عن خادمين هـرمين مثلنـا .. ! »

المتكلم رجل احنت الاعوام ظهره واطفأت بريق عينيه وجعدت بشرته واضعفت صوته ، فهو فى السادسة والثمانين من العمر ، واسـمه « فوشيه فيول » ولد فى أورشليم حوالى ١١٠١ للميـلاد . اما رفيقه الذى يصغى اليه ، فهو رمة بشرية اخرى ، يرزح تحت عبء جيـل كامل ، اذ انه يبلغ المائة او اكثر ، واسمه « روبير دى كوربى »

كان هذان الشيخان المتهدمان يعيشان معا فى بيت واحـد ، ويخدمهما جندى قديم ، يبذل مجهوداً جبارا للقيام بأودهما والسهر على راحتهما ..

اما فى تلك الليلة ، فان فوشيه فيول ورفيقه يشعران بيأس لاامل بعده يستولى عليهما ، وبحزن مميت لايعتقدان ان فى وسعهما احتمـاله فقد مات الجندى الطيب القلب ، الذى غمرهما بعطفه واحسانه .. مات مسحوقا بحجر ضخم ، سقط عليه وهـو يجتـاز بـاب الملك داود ! ..

اصبح الشيخان وحيدين ، لاسند لهما فى الحياة ولا معين ، ولاامل لهما فيها ولا رجاء ، وقد حط عليهما الدهر باثقاله ، فقررا ان يستقبلا الموت ، فى اليوم الذى ولد فيه يسوع ابن مريم ..

وردد فوشيه فيول قائلا لرفيقه :

« لنلجأ الى الصـلاة ياروبـير ! »

***

وطلعت الشمس فى اليوم التالى وهاجة نيرة ، فغمرت باشعتهـا المنعشة المدينة المقدسـة فقد تبددت الغيوم من الفضاء ، ولكن الامطار التى تساقطت فى الليلة السابقة ، حولت الازقة الضيقة الى مستنقعات

وظل النصارى قابعين فى بيوتهم ، وقد حرموا من زعمـائهم ورؤسائهم وكهنتهم ، وفعلوا جميعا ما فعله فوشيه وروبير وجرفيـه وزوجتـه ، فلجأوا الى الصـلاة ، موئل المؤمنين من كل جنس ودين ، وعزاء المنكوبين فى كل ظروف وحين ! ولم تشـهد بلدة « بيت لحم » فى ذلك اليوم ، تلك المواكب التى كانت من قبل تفد عليها مـن جميع انحاء المملكة الصليبية ، للاحتفال بالميلاد ، فى كنيسة الميلاد



صلاح الدين الأيوبى

في زى **القرويين**

وفى صباح اليوم ذاته ، كان صلاح الدين يوسف الايوبى يعقــــد مجلســـا من خيرة أخصائه والمقربين اليــه ..

ولكن هـــذا المجلس لم يطـــــل ..

فان السلطان اصدر اوامره بسرعة الى جلسائه . ثم التفت الــى اخيه الملك العادل سيف الدين الذى قال ، بدون ان ينتظر الســؤال : « كل شىء قد تــم »

فنهض صـــلاح الدين ، وتبعه رفاقه ..

وفى مساء ذلك اليوم ، اقدم الرجل الذى هزت انتصاراته العالمين فى الشرق والغرب ، والذى كان عظيما فى حربه ، عظيما فى ســـلمه ، على عمل نبيل ، تجاه المسيحيين الحزانى المكلومين ، لم يذكر التــاريخ له مثيلا ، من قبل او من بعـــد !

فقد سار السلطان صلاح الدين الايوبى ، فى مياه الازقة واوحــال الطرقات ، يبحث عن النصـــارى الافرنج القابعين فى عقـــر بيوتهم والذين لم يفندهم اهلوهم فوجدوا انفســـهم فى ضـنك شديد ،حاملا اليهم تهانئه وهداياه ..

كان يطرق الابواب ، فتفتح صارخة على رزازها ، ويبدو التســيوح والنساء من ورائها خائفين مرتاعين او يطل الاطفال من الطاقات والنوافذ مذعورين باكين . ثم تعود الطمأنينة الى نفوسهم فيستقبلون الوافدين ويتقبلون منهم الهدايا من مأكل وملبس ومال

ولم يكن أولئك الوافدون غير الســلطان ورفاقه ، وقـــد راحوا ينشرون الغبطة والسعادة والرخاء ، فى بيــوت النصـــارى بأورشليم ليلة عيد الميلاد ..

***

كان روبير دى كوربى وفوشيه فيول وجرفيه فوريل وزوجتــه والاولاد الاربعة ، قد اجتمعوا فى بيت الشيخين المقعدين ، وعولوا عــلى قضاء ليلة العيد معا ، يحاولون نسيان الجوع بتبادل كلمات التشجيع والعـــــــزاء ..

ظل جرفيه « مقطوع الساق » يردد : «معجزة .. » ولكنه لايضيف قائلا : « أو جريمة » ..

كان هاتفا يهتف به بأن المعجزة ستتم ، وان السيد المســيح لن يتخـــلى عنـــه !

وتمت المعجـــزة !

فقد صدح صوت بالباب قائلا :

« عيد سعيد ياقوم ! » وانتفض الجميع مذهولين .. وكـــرر الصوت تهنئته « عيد سعيد ياجرفيه ، يامقطوع الساق »

صـــــاح جرفيـــــه بصـــــوت اراد ان يجعله حازما :

ـ من انت ؟

ـ صـــلاح الدين !!

كان لذلك الاسم رنة غريبة ، فى ذلك البيت المسيحى القـــديم المتهدم ، فنظر القوم بعضهم الى بعض ، وهم لايفهمون ، او لايريدون ان يفهمـــــوا ..

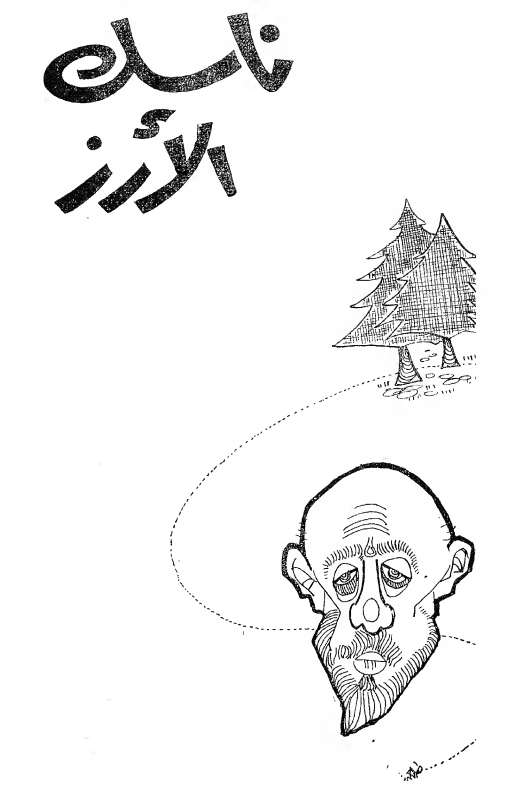
ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا الحقيقة ـ الحقيقة الواقعة الرائعة : صلاح الدين ، السلطان الفاتح ، جاء يقضى مــــع الشيخين وجيرانهما ســهرة عيد الميلاد ! ..

***

كانت تلك السهرة فاتحة حياة جديدة لروبير دى كوربى وفوشيه فيول ، وجرفيه فوربل وتريز وأولادهما الاربعة .. فقد أمر صــــلاح الدين بأن تترك لهم جميعا حريتهم التامة فى بيت المقدس . وان يصرف لهم معاش من خزينة السلطان الخاصة ..

ويقول المؤرخون الافرنج ان روبير دى كوربى عاش مائة وثمانيــة اعــــوام ، وان فوشيه عاش مائة عام . اما جرفيه مقطوع الساق ، فقد رحل عن بيت المقدس عندما بلغ ابناؤه سن الشباب ، وقضى بقيــة حياته فى عاصمة الامارة اللبنانية الصليبية السابقة : طرابلس ..

وظل اولئك الناس يذكرون فى صلواتهم اسم الملك الكريم الـــذى عطف عليهم فى محنتهم ، وواساهم فى عزلتهم ، كما ظل عمل صــــلاح الدين فى تلك الليلة ، حديث الاجيال والاحقاب !


ناسك
الأرز

للمرة العاشرة أقام العرب كمينا على طرابلس وحاصروا اسوارها وهاجموا قلاعها .. وللمرة العاشرة صمدت لهم حاميتها ، وامطرتهم وابلا من السهام والنبال والحجارة ، وردتهم عن المدينة . فعادوا على اعقابهم لكي يجمعوا شملهم ، ويضاعفوا عددهم ومعدانهم ، ويعيدوا الكرة من جديد على الحصون المتمردة ..

كان ذلك فى سنة ٥٨١ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٥ للميلاد . فاقسم يوسف صلاح الدين الايوبى الا يظل على راس السلطنة المصرية والشامية اكثر من سنتين ، اذا استطاع الافرنج ان يحولوا بينه وبين الاستيلاء على معاقلهم فى تلك الديار ، وتدمير مملكة أورشليم التى انشأها الصليبيون وظلوا محتفظين بها منذ عهد قائدهم الاول جودفروادى بويون ..

وعزم السلطان قبل كل شىء ان يبذل جهده ، ويحصر قواه ، فى الاستيلاء على مدينة طرابلس او عزلها ، وهى الرابضة فى سفح لبنان الشمالى ، الفاتحة أحضانها للسفن القادمة من الغرب، المحاطةبسلسلةمن الاسوار القائمة والابراج الشاهقة والآجام المنيعة ، تعلوها جبال لبنان الشامخة ..

وكان يحكم طرابلس ويقود الافرنج هناك فى ذلك الوقت فارس من فرسانهم الاشاوس ، يعرفه العرب باسم « القومس التولوزى » وابناء قومه باسم « ريمون الخامس كونت دى تولوز » .

اوفد الكونت الى وطنه رسولا امينا لطلب النجدة والمعونة من اخوته واعمامه ، فلبوا النداء واجابوا الطلب .

وعاد الفريقان — العرب والافرنج — الى الكر والفر والهجوم والدفاع ، فاستحالت تلك الربوع الفيحاء والجبال الوعرة الى ميدان واسع الارجاء ، يتطاحن فيه رجال الحرب وجبابرة الباس ويتقاتلون وقد اشرف عليهم ملك الموت من اعالى تلك القمم ، ورفرف باجنحته السوداء على المجزرة ، وبيده المنجل الحاصد يتناول به الارواح ويختطفها !

***

فى ذلك الوقت ، كان يقيم فى كهف منحوت فى الصخر الاصم ،فى ظلال اشجار الارز الباسقة ، وفى رعاية اغصانها الخضراء ، ناسك متعبد اثقلت السنون كاهله واحنت راسه وكتفيه ، وغطت الشعور البيضاء وجهه وعنقه وصدره كما تغطى الثلوج فى الشتاء رؤوس لبنان وهضابه وسفوحه .

لم يعرف احد من امره شيئا ، ولم يستطع احد ان يرفع طرفا من الستار الذى اسدله الرجل على ماضيه ، فاطلق عليه الرعاة والصيادون والفلاحون الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة الوعرة ، اسم « النـاسك » مجردا من كل لقب وتعريف ..

وانتشر ذكره فى الآفاق وذاع صيته فى البـلاد ، فصـار النـاس يقصدون اليه على اختلاف اجناسهم ومذاهبهم ، المسلم يسابق النصرانى والنصرانى يزاحم المسلم ، للتبرك بلثم يديه والتوسل اليه بان يـكون واسطة بينهم وبين الله عز وجل ، لتحقيق امنية او دفع مرض او ابعاد خطـــر .. !

وكانت تاتى اليه مرة فى الاسبوع فتاة بارعة الجمال ، طويلة القامة قوية البنية ، ممتطية صهوة جواد اصيل ، يصحبها دائما فـارس من فرسان ريمون دى تولوز ، فتقضى عنده سحابة نهار ، ثم تعـود مع الفارس رفيقها الى طرابلس حيث كانت تقيم .

من هى تلك الفتـاة ، واية صلة تربطها بذلك الناسك المتعبـد المعتزل فى صومعته ؟

اسمها « مارى تريز » ولا يعرف احد اسم الاسرة التى تنتمى اليها .. وكل ماوصل الناس الى معرفته عنها انها وصلت ذات يوم وحيدة ، ماشية على قدميهامن مكان مجهول ، وذهبت الى الكونت ريمون دى تولوز صاحب طرابلس ، وطلبت اليه ان يحتفظ بها فى قصره بين النساء الكثيرات اللواتى كن يعشن فيه ، بعد ان فقدت اباها فى الحرب

قالت له انها من اسرة فرنسية شريفة عريقة ، وانها جاءت الـى الارض المقدسة مع ابيها .. وفاء لنذر وقياما بواجب الحـج الى بيت المقدس . وبعد ان اديا الفريضة اراد الاب ان ياخذ نصيبه من القتـال فلقى حتفه فى الميادين ..

عطف الكونت ريمون عليها ، وجعل لها مكانا فى قصره بين مثيلاتها وهن كثيرات ، ومنذ ذلك الوقت ـ اى منـذ سنة ١١٧٥ ـ أقامت الفتاة فى داخل المدينة ، وسمح لها الكونت بان تخرج مرة فى الاسبوع فى صحبة احد فرسانه لزيارة ذلك الناسك الذى حدثته عنه كثيرا ، والذى بلغت اخباره مسامع الكونت الشريف ، فأراد أن يتقرب منه ويتحقق بنفسـه من صـحة ما يشـيعه الناس عن صاحب الكهف فى ظـلال الارز ..

ظلت الامور سائرة على هذا المنوال عشر سنوات . فالفتاة تذهب الى الصومعة مرة فى الاسبوع . والكونت يصحبها اليها من وقت الـى

آخر . وشهره الناسك تنتشر يوما عن يوم وصيته يجتاز الهضاب والجبال والسهول ويتسع مع مضى الوقت .

وفى صبيحة يوم من أيام الشتاء الباردة فى سنة ١١٨٥ للميلاد ، وفد على قصر الكونت ريمون دى تولوز راع لبنانى طلب المثول بين يدى صاحب طرابلس قائلا ، انه يحمل اليه رسالة من ناسك الارز

ولما دخل الراعى على الكونت حياه باسم الناسك وقال : ..

ــ ان القديس الذى نحترمه ونجله جميعا قد أوفدنى اليك يامولاى لكى افضى برغبة قد تكون اخر رغباته : انه يطلب منك ان تذهب اليه اساعتك ، ومعك الفتاة مارى تريز . يريد منك ان تكون عنده الليلة لانك لو وصلت الى صومعته غدا فقد لاتجده فيها حيا .!.

نهض الكونت ريمون دى تولوز من مقعده مضطربا وأسرع الى الفتاة فناداها من حجرتها . ثم امر كوكبة من فرسانه باللحاق به . وتوجه الجميع الى غابة الارز ..

***

قال الناسك الشيخ بصوت متهدج ضعيف :
ــ مولاى . لقد آن الاوان لكى اطلعك على حقيقة امرى واكشف لك الستار عن ماضى وسر حياتى . اننى اشعر بدنو اجلى . ولن تمر ساعات معدودة حتى تكون النفس قد فارقت منى الجسد صاعدة الى خالقها فى ملكوته .. مولاى .. اصغ الى الكونت « هنرى دى مونفور » الذى يحدثك ..

ــ هنرى دى مونفور ؟

نعم .. هنرى دى مونفور .. لا يدهشنك ذلك يا مولاى .. انكم تعتقدون جميعا ان ذلك النبيل الفرنسى الذى جاء الى الارض المقدسة مع ابنته على اثر وفاة زوجته واخته وابن اخيه فى ليلة واحدة ، قد قتل فى الحرب حيث اندفع يائسا الى الموت ، وجعل يزج بنفسه فى مواطن الخطر عن عمد وقصد ..

ــ نعم .. هذا مانعتقده جميعا ..

ــ انكم لاتعرفون الحقيقة ... لم يمت هنرى دى مونفور ، وهو الذى يحدثك الان ياريمون دى تولوز ..

سكت الشيخ هنيهة ثم استطرد قائلا :
ــ كنا عائدين من القدس ووجهتنا ساحل لبنان . وكان عددنا نحو

عشرين رجلا وثلاث نساء ، منهن ابنتي ، فداهمنا كمين في غابة كثيفة ودارت بيننا رحى القتال ودارت معها الدائرة علينا . وفي اثناء القتال اخذت عيني رجلا من رجالنا رافعا فاسه لكي يجهز على جريح غارق في دمه . فاسرعت اليه وحلت بينه وبين ما كاد يفعله . وقلت للجريح: «لاتخف .. لن تمتد اليك يد بسوء مادمت على الارض جريحا » وبعد المعركة ، عندما تغلب الاعداء علينا وساقوا امامهم الاحياء منا اسرى في القيود يرسفون ، ذهبوا بنا الى قائدهم وسيدهم ..

ــ هل عرفت اسمه ؟

ــ الامير غالب الشهابي .. وهو ينتمي الى الاسرة العربيه التي حلت من مدة قصيرة في « وادي التيم » وبسطت سلطانها على ذلك الاقليم الحصين ..

ــ اعرف هذا الامير واعلم انه نبيل شجاع ..

ــ نعم .. لقد اثبت ذلك بالادلة والبراهين ..

ــ اتمم قصتك يا اخي ..

ــ جيء بنا الى ذلك الامير ، فاذا بي امام الجريح الذي انقذت حياته في حومة القتال !

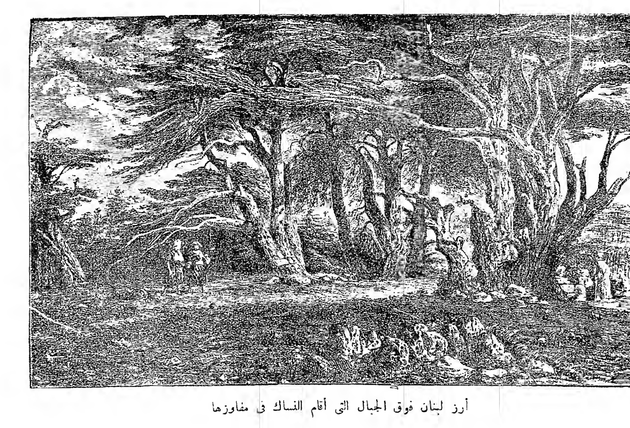
ــ اما قلت له ذلك ؟

ــ عرفني قبل أن افوه بكلمة ، وما وقع نظره علي حتى صاح بقومه « فكوا قيود هذا الرجل واعيدوا اليه حريته !» حينئذ ادركت انني امام بطل من اولئك الابطال الذين يمارسون الشهامة في الحروب فقلت له : « انك تعيد حريتي ايها المولى لانني انقذتك من الموت في اثناء المعركة . لكنني ارفض عفوك هذا واطلب منك ــ اذا كنت ترغب في معاملتي بالمثل ومقابلة المعروف بالمعروف ــ ان تطلق سراح ابنتي الاسيرة وتعيدها الى الحياة الحرة . اما انا فانني اوثر البقاء في الاسر على ترك ابنتي مقيدة بأغلاله ! »

ــ وماذا قال لك .. ؟

ــ نظر الي بعينين كأنهما جمرتا نار تقدحان وسط غابة من الشعر وقال : « اننا لانحتفظ بالنساء مادمنا نفرج عن الرجال . فاذهب مع ابنتك ، انك لجدير بان اعاملك هذه المعاملة ، لانك كنت في ساحة القتال عدوا شريفا وبطلا نبيلا .. فبسطت له يدي فصافحها وقال : «اذهب» .

فقلت له : « لقد انقذت حياتك فقط ، اما انت فقد قابلت ذلك بنعمتين وانقذت من العبودية والاسر حياتين . فلا أزال اذن مدينا



أرز لبنان فوق الجبال التى أقام النساك فى مغاورها

لك بفضل ومعروف » فاجابني : « اذا كنت تريد الا اطالبك يوما من الايام بوفاء هذا الدين ، فاقسم بايمانك امام هؤلاء الابطال على اجتناب الحرب بعد الان .. واقطع على نفسك عهداً بالا تشهر فى وجوههم سلاحا .. »

— وهل فعلت ذلك .. ؟

— نعم ... كان لابد لى من قطع ذلك العهد والقيام بذلك القسم .. فاقسمت وتعهدت . ومنذ ذلك الوقت عزمت على قضاء ايامى الباقية فى صومعة منعزلة ، فى اعالى هذه الجبال ، بعيداً عن الناس .. وعن الحرب !

— وابنتك ؟

— ابنتى ؟ .. اما عرفتها بعد يا اخى ؟ لقد لجأت اليك فاضفتها وهى تقيم فى قصرك منذ عشر سنوات !

— مارى تريز ؟

— مارى تريز ، نعم .. لقد برت بوعدها ولم تبح لاحد باسمها ولم تقل امام احد ان الناسك الذى تزوره مرة فى الاسبوع هو والدها الكونت دى مونفور ! ..

ضمت الابنة البارة راس ابيها بين ذراعيها واجهشت بالبكاء . فجعل الشيخ يداعب جدائل شعرها بيديه المرتعشتين ، وقال :

— اننى راحل عن هذا العالم يا ابنتى ، لكننى ارحل هادىء البال مرتاح الضمير ، مطمئناً من نحوك .. اننى اتركك فى رعاية سيد قوى الجانب عالى الهمة واسع الصدر كثير الرحمة نبيل الشعور ... انك تفقدين اباك ، ولكنك تجدين فى ريمون دى تولوز ابا واخا وحاميا ونصيرا ..

ثم التفت الشيخ الى الكونت ، وبيده ملف من الاوراق تناولهمن تحت فراشه ، وقال :

— ان هذه الاوراق والوثائق ياريمون ، تثبت حق هذه الفتاة فى ارث ابيها وفى لقب اسرتها .. فخذها واعد اليها ماتستحقه من مال وعزة وجاه ...

وكان الله اراد الا تفارق الروح جسد ذلك الناسك الا بعد ان ينتهى من سرد قصته ، وافشاء سره ، فانه ماوصل الى هذا الحد من حديثه حتى خفت صوته فجاة ، وانتابته رعشة قوية فانتفض ومال براسه على صدر الفتاة ..

بعد ان وضعت جثة الناسك هنرى دى مونفور فى كفنها ، ولفت فى لفائفها ، خرج الكونت ريمون دى تولوز والفتاة مارى تريز دى مونفور ومن كان يصحبهما من الفرسان ، من الكهف المظلم ..

وتنفيذا لرغبة سبق للناسك أن افضى بها تركت الجثة فى داخل الكهف ، وردت الصخور على بابه ، وهيل عليه التراب ، ونثرت الاغصان والرياحـــــين .

وظل الناسك مقيما فى كهفه بعد مماته كما كان مقيما فيـــــه فى حيـــــاته .

واستحالت الصومعة الى قبر ساكن ..

وفى سنة ١١٨٧ صعدت الفتاة مارى تريز الى غابة الارز ،وودعت اباها الوداع الاخير ، قبيل رحيلها عن تلك الديار عائدة الى وطنهـــــا فرنســــــا ..

وفى ذلك اليوم الذى زارت فيه الفتاة قبر الناسك للمرة الاخـــيرة كان صلاح الدين الايوبى يجتاز اسوار اورشليم ويدخلها فاتحا منصورا وقد بر بقسمه واجتاح المملكة الصليبية ودمر حصونها ، قبل مـــضى سنتين على القسم الذى فاه به !

وكان ذلك فى ســــــنة ٥٨٣ للهجــــرة ، الموافقة لسنة ١١٨٧ للميــــــلاد ..

وفى سنة ١١٩٤ مات الكونت ريمون دى تولوز ، ودفن فى طرابلس المدينة التى حكمها اباؤه واجداده من قبل ، والتى دافـــع عنهـــــا دفاع الابطـــــال ..

***

تلك هى قصة هنرى دى مونفور ..

وقد تناقلت الاحقاب من بعده تلك القصة الرائعة ، وجعل الرواة يضيفون اليها كل يوم جديدا ، ويغالون فى سردها ويبالغون ، حتى جاء يوم اصبح فيه الناس يعتقدون ان فى قبر الناسك كنزا ، وان ذلك الكنز لايقدر بمـــال ! ..

ودفع الجشع بعضهم الى البحث والتنقيب ، من سواحل طرابلس الى غابة الارز ، لكنهم لم يعثروا على شىء ، ولم يكشفوا فى ســــــفوح الجبال الا عن هياكل بشرية ، هى بقايا أولئك النساك الذين كانوا يهرعون الى الصخور والكهوف فيتخذونها مسكنا لهم ، ويتفرغون فيها للصلاة والعبادة ، كما فعل هنرى دى مونفور ..

وقد يكون أولئك الباحثون المنقبون قد عثروا على جثمان «ناسك الارز » وبعثروا عظامه فى الوادي المقدس — وادى قاديشـــا بلبنـــان — دون أن يعلموا السر الذى كان ذلك التقى الورع يضمه فى صدره .


الخنجر الذهبي

أصغى صلاح الدين باهتمام ممزوج بالقلق والانزعاج ، الى حديث الفارس الكردى ، الذى جاء يروى له ماصنعته عصابة المغامر الفرنسى « جان ديلى » بالقافلة المحملة حنطة وجلودا ، والقادمة الى بيت المقدس من السهول الشامية .

وكان كلما توقف الرجل عن الكلام طلب منه السلطان مزيدا من التفاصيل . . :

ــ اوضح ، اوضح ياعمر ، فلست اول من ينبئنى باعمال ذلك الغريب الجرىء ، واعتقد انك لن تكون الاخير .. فافصح بقدر ماق جعبتك من اخبار عنه ..

ــ انه جبار عنيد يامولاى .. يقود شرذمة من الجبابرة العنيدين .. يقطع الطريق على رجالنا ويهاجم قوافلنا غير حاسب حسابا للعدد والعتاد .. وقد سلب منا ثلاثين جملا او اكثر باحمالها الثمينة ، واخذ اربعة افراس اصيلة ، وانتقى من بين الاسلحة التى كنا نحملها سيوفا ورماحا ، انتقاء العارف الخبير ..

ــ وكم قتل من رجالكم ، وكم قتلتم من رجاله ؟

ــ كانت قافلتنا مؤلفة من تجار يحرسهم عدد قليل من الفرسان وكان الافرنجى على راس أربعين من أشد المقاتلين اقداما . وقد قتلنا منهم خمسة ، ولكنهم قتلوا منا عشرة رجال ، ولم يبق على قيد الحياة من رفاقى الفرسان غير ثلاثة وانا رابعهم ..

وقبل ان يتم عمر الكردى وصف ماحدث للقافلة التى كان واحدا من حراسها ، وفد على قصر السلطان ببيت المقدس رسول يحمل اليه خبرا اخر عن جان ديلى وعصابته :

فقد هاجم هذا الرجل كوكبة من فرسان البادية ، كانوا ايضا فى طريقهم الى بيت المقدس ، ومعهم قطيع من النوق السريعة هدية من القبائل الشامية الى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، اعترافا منهم بفضله ..

وبلغ غضب السلطان اقصاه : فقد جاوزت اعتداءات ذلك الفارس الغريب حدود المعقول . ولابد من وقفها وتامين الطريق بين المدينة المقدسة واطراف الدولة الاسلامية التى وسع صلاح الدين شقتها بانتصاراته الباهرة .

وشهد مقر السلطان مجلسا غريبا غير مالوف ، اشترك فيـــــه فريق من قواد الجيش العظام ، لا لوضع خطة حربية يراد بها غـــزو امارة صليبية او دك عرش من عروش الافرنج فى ديار الشام ، بل مطاردة جماعة من المغامرين لايزيد عددهم على بضع عشرات من الفرســـان ، اقلقوا الدولة ونشروا فى اطرافها الرعب والفزع .

***

وكان صلاح الدين الايوبى قد هزم جيوش الافرنج وسحقها فى معركة حطين فى الرابع من شهر تموز ـ يوليو سنة ١١٨٧ للميلاد ـ الموافقـة لسنة ٥٨٣ للهجرة ـ واسترجع بيت المقدس ، واسر الملك « جى دى لوسينيان » وعشرات من قواده ومستشاريه ، وبسط سلطانه على مملكة « اورشليم » وعامل أعداءه بحلم ورفق اطلق السنتهم بالثناء والتقدير . وكان كل همه ، بعد ذلك النصر العظيم ان يواصل العمل الذى بـــدأ به ، والرسالة التى اخذ على عاتقه تأديتها ، بالتفاوض والتفاهم اذا تيسر له ذلك ، او بالحرب اذا تعذر الاتفاق السلمى .

وانسحب الصليبيون الى الشمال ، وانصرفوا الى تضميد ما اصابهم من جراح ، وتوحيد صفوفهم بعد ما اصابها من تفكك ، واعادة الثقـــة الى نفوسهم بعد ما اصابها من ياس وقنوط .

ومرت شهور اقتصرت فيها العلاقات بين السلطان صلاح الـــدين والامراء الصليبيين على المعاملات المالوفة بعد حرب لم تضع اوزارهـا، والرامية الى افتداء الاسرى من الجانبين ، وتسليم المواقع الحربيـــة والحصون والقلاع ، وانسحاب حامياتها ، وتحديد شروط الانتقـــال واجتياز الطرق من الجانبين ، وغير ذلك من الشئون التى تصرف فى جو لاتعكره قعقعة السلاح وضوضاء المعارك .

واخلد كل من الفريقين المتطاحنين الى الهدوء ، استعدادا للجـولة المقبلة التى كان كل منهما يعرف ويشعر بانها قادمة لاشك فيهـا ، ان عاجـــلا وان اجـــلا ..

ولكن واحدا من القواد الصليبيين لم يعمد الى هدوء ، ولم ينتظـر موعد الجولة المعهودة ، بل اراد ان يبداها فى الحال ، وحده وعلى كـره من المسلمين ومن بين قومه على السواء : ذلك القائد هـــو جان ديـلى الفرنسى ...

فقد جمع حوله فريقا من المغامرين ، وجعل منهم عصابة مســلحة وانطلق فى السهول والجبال والوديان ، يقطع الطريق على رجال صــلاح الدين ، سواء كانوا من الجنود او من التجار او من المزارعين والرعـــاة

يقتل ويسلب وينهب ، ويبدى من ضروب الشجاعة والجراة والاقدام مايثير الاعجاب وفى آن واحد يبعث الرعب فى النفوس . ولم يمض اسبوع واحد بدون ان يروى الرواة ، او ينقل الرسل الى صلاح الدين ، خبر ضربة جديدة انزلها ذلك الفارس المتمرد بجماعة من المسلمين ، فى احد الطرق المؤدية الى بيت المقدس . وكانه اراد ان يتحدى السلطان من ناحية ويقطع المؤن على المدينة من ناحية اخرى ، فحصر اعماله فى دائرة ضيقة ، لاتتعدى جبل الشيخ شمالا ، ووادى الاردن شرقا ، وساحل البحر غربا ، وطرف صحراء التيه جنوبا . .

وفاوض صلاح الدين بشانه امراء الصليبيين فبعث كل منهم برسول يدعو المغامر العنيد الى الرضوخ للهدنة التى وضع بموجبها حد للقتال . فرفض الخضوع وضاعف نشاطه وشدد ضرباته .

وجرد صلاح الدين حملة قوامها ثلاثمائة فارس للقضاء على تلك العصابة المؤذية المقلقة ، والمجىء اليه بقائدها حيا .

***

على ضفاف الاردن ، بالقرب من بحيرة الجليل ، وعلى مسافة غير بعيدة من ميدان معركة حطين ، تمكن فرسان السلطان من الاحاطة برجال جان ديلى ، وارغامهم على القتال . وكان عددهم لايزيدعلى ستين من الفرسان المدججين بالسلاح ، المدرعين بالفولاذ ، العازمين على الموت دون التسليم ، لانهم يعرفون ان التسليممعناه ايضا الذهاب الى الاعدام ، سواء كان وقوعهم فى ايدى المسلمين . . أم فى ايدى الصليبيين قاتل رجال العصابة قتال الابالسة . وسقطوا فى الميدان الواحدبعد الاخر . . ولم يلق احد منهم السلاح وفيه رمق من الحياة . وبعد صراع مرير دام ساعات ، سقط فى خلاله ايضا عشرات من رجال السلطان صرعى بايدى اولئك المردة المستيئسين ، لم يبق من العصابة على قيد الحياة غير قائدها . .

كانت اوامر صلاح الدين صريحة واضحة لامرد لها ولا ابهام فيها . فهو يريد أن يجىء اليه رجاله بالفارس الغريب جان ديلى حيا يسعى على قدميه . ولهذا ، فان جنوده كانوا يحاولون القبض عليه او حمله على التسليم ، او قتل فرسه ليقع على الارض ويسهل الانقضاض عليه . وقد ادرك الرجل ذلك ، وفطن الى الخطة المرسومة لاخذه اسيرا ، فاستغلها ايما استغلال !

كان الجند يتجنبون اصابته برماحهم وسيوفهم غير اصابات طفيفة فكان هو يقابلهم بضربات تجندل كل ضربة منها فارسا او تزهق

روحه . وكان يفلت من كل حصار ، ويابى ان يسلم نفسه ، وكلما قتل تحته جواد قفز على ظهر جواد بلا فارس ..

تحطم سيفه في يده فالقاه جانبا ، واستل خنجرا واصل به القتال ..

ولكن قواه خانته في النهاية ، فسقط من الاعياء بين كومة من الجثث جعل يعدها على اصابع يده ، وهو يقهقه فاغرا فمه ، ويمسح بكمه الرغوة المنسابة من بين شفتيه .

ووثب عليه اعداؤه فبادر احدهم بطعنة من خنجره ، كانت الاخيرة: فقد تحطم الخنجر كما تحطم السيف من قبله ..

وغاب جان ديلي عن الوعي !

***

دارت بين صلاح الدين الايوبي وبين ذلك البطل الصليبي ، اعجب محاورة يمكن ان تدور بين ملك وجندي ، وبين قاهر ومقهور ، وبين شرقي وغربي ..

ساله صلاح الدين :

ــ ابن من انت ؟

فأجاب الرجل بصوت جهوري لم تؤثر الهزيمة في نبراته :

ــ ابن ابي وامي ! ويكفيك ان تعرف اسمي ، وهو الاسم الذي سينقش على جدران الكنائس في بلدتي : اسمي جان ديلي

ــ وما اسم بلدتك ؟

ــ ماروندول ، في مقاطعة بروفانس ، من ممتلكات ملك فرنسا

ــ متى جئت الى هنا ؟

ــ جئت الى الارض المقدسة منذ ثمانية اعوام ، وزرت اورشليم حيث قبر المسيح ..

ــ امتزوج انت ؟

ــ نعم . وزوجتي رافقتني في رحلتي هذه . وقد قتلت في اليوم الذي استوليتم فيه على المدينة المقدسة .

ــ من قتلها ؟

ــ جندي من جنودك !

ــ ليس عهدى بهؤلاء الجنود انهم يقتلون النساء .

ــ قتلها جندى من جنودك ، اننى لا اكذب ! قتلها بسهم وهي واقفة على الاسوار ..

ــ كانت اذن تحارب ؟

ــ نعم ، كانت تحارب ، الا تحارب نساؤكم اذا ما ادلهم الخطب واشتد الخطر ؟

ــ فى هذه الحالة ، يجب على المراة المحاربة ان تتحمل نصيبها من عواقب القتال ..

ــ اننى لا اشكو اليك ذلك الجندى . ولكننى منذ مصرع زوجتى عولت على الاخذ بثأرها ..

ــ هل تعرف الجندى الذى قتلها !

ــ كلا .. ولهذا ، نقد قتلت من جنودك كل من تمكنت منه لعله يكون هو القاتل !

ــ ما هى سنك ؟
ــ ثمانية اعوام !
ــ ثمانية اعوام .. فقط ؟

ــ نعم ، لاننى لا احسب السنوات التى قضيتها فى وطنى . وقد عشت عمرا جديدا منذ ان وطئت قدماى هذه الارض المقدسة .

ــ اليس لك ابناء ؟

ــ كلا .. لم يبق لى غير أمى

ــ الا تتوق الى رؤيتها ؟

ــ كنت اعلم ، قبل رحيلى عن وطنى ، اننى سأواجه المخاطر هنا ، واخوض المعارك ، واعرض نفسى للموت ..

ــ الست نادما على شىء مما اقدمت عليه ؟

ــ لم اقدم على شىء مما تحرمه قوانين الحروب ، وقوانين الشرف!

ــ لقد سرقت ونهبت وقتلت !
ــ وهل الحرب غير قتل ونهب وسرقة ؟

ــ لقد عصيت أوامر رؤسائك ورفضت الخضوع لشروط الهدنة بيننا وبينهم ..

ـ هذه الهدنة ليست الا خدعة منكم ومنهم ، ورمادا يذره كل فريق من الاثنين فى عيون الفريق الآخر ! اما اوامر رؤسائى ، فهى صادرة عن خوف لا عن رغبة حقيقية فى المسالمة والمصادقة !

ـ لقد تسببت فى قتل ستين من الابطال الذين تبعوك ..

ـ نعم ، وضعف هذا العدد من الابطال الذين أرسلتهم انت للقبض على حيا لا ميتا ! ..

ـ اليس هذا حراما ؟

ـ لقد ماتوا مخيرين وكان فى وسعهم الا يموتوا !..

ـ اليس لديك رغبة تبديها ، كى نجيبك اليها ؟

ـ لى رغبة واحدة ، كنت اقاتل بالسيف فتكسر السيف بيدى . وكنت اقاتل بالخنجر فتكسر نصله أيضا .. ولكننى اريد أن أبحث عن مقبضه ، لكى تدفن معى عندما توارونني التراب .

ـ واية اهمية لقبضة ذلك الخنجر . اهى من فضة او ذهب ؟

ـ لا .. انها قبضة من خشب .. صنعتها لى امى من غصن شجرة غرستها بيدى وانا طفل ، فى البلدة الصغيرة التى نشأت فيها .. فهى اذن التذكار الوحيد الباقى لى ، من الشخص الوحيد الباقى على قيد الحياة من اسرتى !

***

سكت صلاح الدين الايوبى . وجال بنظره على الاعوان والانصار الذين حضروا تلك الجلسة وسمعوا تلك المحاورة العجيبة ، مذهولين مدهوشين من حلم السلطان ورقته وسعة صدره .

ثم التفت الفاتح العظيم الى الرجل الذى كان ينتظر الحكم عليه بالاعدام ، وقال :

ـ لن نقتلك ولن ندفن جثتك فى التراب يا جان ديلى . فشجاعتك تشفع لك . وحرام علينا أن نجازيك بالموت، ما دمت قد نجوت منه فى الميادين .. كنت تعتقد انك تؤدىواجبا فرضتهالشهامةعليك :طلبا لثأر زوجتك .. فنحن نعفو عنك ، ونطلق سراحك ، ولكننا نشترط عليك شرطا ، وهو أن تعود الى بلادك ، وترجع الى امك ، وتذكر بالخير قوما كان فى وسعهم أن يعدموك الحياة ، فتركوها لك !

فانحنى الرجل امام السلطان وقبل طرف ردائه ، وظل

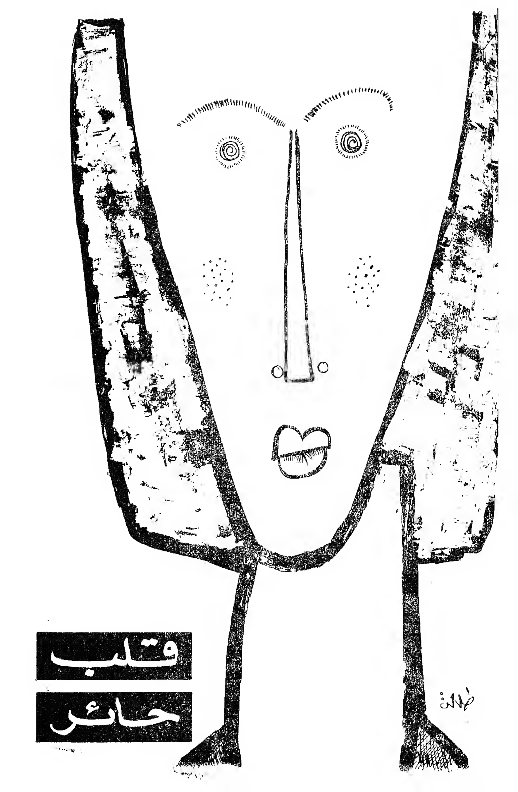
برهة من الوقت يحدق البصر فى وجه البطل الذى ملا ذكره الافاق وأراد أن يتكلم فعصاه النطق للمرة الاولى فى حياته .

واستطرد صلاح الدين يقول :

ــ سنوفد معك بعض رجالنا للبحث عن قبضة خنجرك وما تبقى من نصله .. ثم أننا نهديك هذا الخنجر ، لتحتفظ به فى بلادك ، وتذكر صلاح الدين الايوبى كلما وقع نظرك على نصله !

وأخذ السلطان خنجره الذهبى ، وقدمه الى الفارس الصليبى الذى تقبله والدموع تترقرق فى عينيه .

وأبحر جان ديلى عائدا الى بلاده ، حاملا معه قبضة الخنجر الذى اهدته اليه امه ، والخنجر الذهبى الذى أهداه اليه السلطان صلاح الدين الايوبى ، بعد أن ربط نفسه بقسم ، على أن لا يحمل السلاح محاربا فى الارض المقدسة !


قلب
حائر

بعد سلسلة من المعارك الطاحنة ، ابدى فيها الفريقان من ضروب الفروسية والبطولة العجب العجاب ، تمكن الصيليبيون من استرجاع جزء من ارض فلسطين المقدسة من ايدى المسلمين ، فاحتلوا « عكاء » و « أرصوف » و « يافا » و « عسقلان » ورقعة طويلة من الساحل ، واستقر قائدهم ريكاردوس قلب الاسد ملك الانجليز فى ثغر يافا الحصين واعتصم خصمه السلطان صلاح الدين الايوبى فى وادى النطرون المنيع

وكان كل من الرجلين العظيمين قد عرف غريمه ، واختبر دهاءه فى السياسة وشجاعته فى القتال ، وادرك أن القضاء عليه دونه عقبات واهوال ، ومال فى سره الى التفاهم والمهادنة ..

وفطن كل منهما الى رغبة الاخر ، فتبادلا الرسل والهدايا ، وتفاوضا فى شروط الصلح ، وكان الوسطاء بينهما فريقا من ابناء البلاد المسيحيين والمسلمين ، ولكن المفاوضات الاولى لم تسفر عن نتيجة يرضى بها الطرفان، فقد تمسك ريكاردوس بوجوب احتفاظه بالثغور كلها، وتمسك صلاح الدين من ناحيته بوجوب تنازل الافرنج عن احدها ، ليكون له منفذ الى البحر فى الجزء الجنوبى من الساحل

وعاد جنود الفريقين الى التحرش بعضهم ببعض ، وساد الاعتقاد بأن القتال سيستأنف لا مفر من ذلك ، واذا بحادث مفاجىء يعيد الطمأنينة الى النفوس . فقد اقترح ملك الانجليز على السلطان حلا لم يكن فى الحسبان ، من شأنه أن يمهد السبيل لصلح ثابت وتعاون دائم ويضمن السلم والامن فى الارض المقدسة اذا وافق رجال الدين على الحل المنشود . وحمل اقتراح الملك الى السلطان رجل كان له عند العاهلين مركز ممتاز ومكانة مرموقة ، وما ذلك الرسول غير المؤرخ العربى « بهاء الدين بن شداد » ..

واصغى صلاح الدين الايوبى الى الرسول يفضى اليه بما يعرضه ريكاردوس قلب الاسد ، وهو لايصدق اذنيه ، بل خيل اليه أن الرجل يمزح أو يخادع ويراوغ !

أما الشروط التى أدهشت السلطان واخاه ، ونالت منهما الرضا والقبول ، فهى :

اولا : ان يتزوج الملك العادل سيف الدين ابو بكر ، أخو صلاح الدين ونائبه فى البلاد الشامية ، اخت ملك الانجليز ، الاميرة جان ، أرملة ملك صقلية ..

ثانيا : أن يتنازل الملك ريكاردوس لاخته جان عن الجـزء الذى يحتله من الساحل ، بما فيه مدن عكاء وأرصوف ويافا وعسقلان .

ثالثا : ان يتنازل صلاح الدين لاخيه سيف الدين عن الجزء الذى يحتفظ به من ساحلى فلسطين ولبنان ، فتؤلف من هذه البلاد كلهـا امارة واحدة ، يجلس على عرشها العريسان ، وتكون بمثابة مهر لهما وهدية من الملك والسلطان يوم زفافهما ..

رابعا : تصبح مدينة القدس مقرا للمـلك العـادل سيف الدين وزوجته جان الانجليزية ، ويسمح للزوجة بأن تكون لها حاشية مـن رجال الدين والجيش الانجليز ، بدون ان يكون لهذا الامتياز مسـاس بصبغة المدينة الدينية الاسلامية .

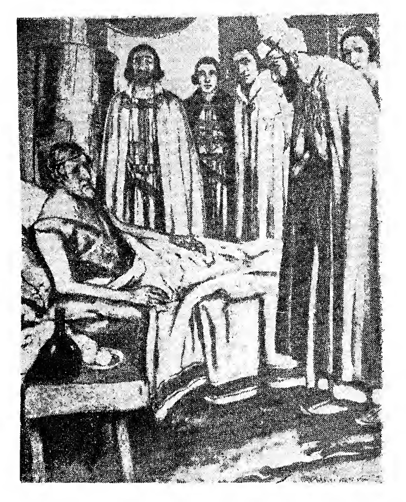
خامسا : يسمح للمسيحيين ايا كان موطنهم بزيارة الاماكن المقدسه بالقدس الشريف ، على شرط أن لا يدخلوا المدينة حاملين أسلحتهم .

لم تكن هذه الشروط موضع اخذ ورد طويلين . فقد رحب بها صلاح الدين واعلن قبولها على مسمع من عظماء دولته ، بعد يوم واحد من اطلاعه عليها . وكان ذلك فى الاسبوع الاخير من شهر اكتوبر سنة ١١٩١ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٨٧ للهجرة .. ولكن الملك ريكاردوس قلب الاسد ، والسلطان صلاح الدين الايوبى ، والملك العادل سيف الدين أبو بكر ، والوسيط بهاء الدين بن شداد ، والعظماء الذين هللوا للاتفاق قبل أن يتم ، جميعهم لم يحسـبوا حسابا للعـروس التى قرروا ان يزوجوها بدون علم منها ، والتى كان عليهم ان يأخذوا رايهـا فلم يفعلوا ..

***

كانت «جان» الانجليزية ابنة الملك هنرى الثانى واخت ريكاردوس تمتاز مثل اخيها بشجاعة تفقدها فى بعض الاحيان التعقل والاتزان .. وكانت جميلة ، تسلب الالباب بحسنها ، وتثير الاعجـاب بفروسيتها النـادرة بين النساء ، وتقول فى الاندية السـياسية كلمتها ، وتلعب فى الحروب والمنازعات دورها . وقد تزوجت ملك صقلية « غليـوم الثانى » ، ولكنها لم تكن سعيدة فى كنفه ، بل تقبلت موته فى سـنة ١١٨٩ بعينين جافتين لم تنهمر منهما الدموع ، وقلب جامد لم يخفق بمشاعر الحزن والاسى ، فان فقد الزوج كان لها بمثابة خلاص من الاسر ، يفتح امامها المنافذ الى حياة جـديدة ، تتمناها الملكة الارملة مليئـة بالمفاجآت والمغامرات ..

وكان « ريكاردوس » يحب اخته ، ويرغب فى اسعادها ، ويعرف ميولها ومطامعها ، فاعتقد أنها لن ترفض ما أعده لها سرا ومن تلقـاء



السلطان صلاح الدين الايوبى يزور خصمه الملك ريكاردوس قلب الاسد
فى اثناء مرضه ، وقد تنكر فى ثوب طبيب عربى ويصف له العلاج الشافى

نفسه .. وهل هنـاك مفاجأة ومغـامرة اروع من ان تصـبح الاميرة الانجليزية ، والملكة الصقلية السابقة ، زوجة ملك مسلم وسلطانة امـة شرقية ، فتتربع على عرش أورشليم ، المدينة التى تقدسها ثلاثةاديان، ويرمقها العالم بأنظاره ؟

وكان اكثر من واحد من أمراء الغرب قد عرضوا عليها الزواجبعد وفاة الملك غليوم الثانى ، فوقعت الاميرة فى حـيرة من أمرها . أتدير ظهرها الى الغرب وتتجه الى الشرق ؟ اتهجر قومها وتلقى بنفسها بين اقوام لا تعرفهم ، لغتها غير لغتهم ، ودينها غير دينهم ؟ الا يعد هذا فى نظر الناس وفىنظر الكنيسـة على الخصوص ، مروقا وخيانة ؟

واذا رفضت ، الا تكون قد ضيعت فرصة لم تسنح وقدلاتسنح لغيرها من اميرات الغرب وملكاته ؟ ان أخاها « ريكاردوس » يؤكد لها أن « الملك العادل » لن يفرض عليها دينه ولن يرغمها على الجحودبدينها، وان هذا الزواج سيفتح صفحة جديدة فى علاقات الغرب المسـيحى بالشرق الاسـلامى ، وقد يكون الخطوة الاولى لوضـع حد للحروب الصليبية ، وحقن الدماء الى الابد بين الفريقين المتناحرين فى الارض المقدسة ..

وكانت « جان » ، بالرغم من عيوبها الكثيرة ، تقية ورعة . ففكرت وصلت واستوحت ضميرها ، وحاولت أن تتخذ قرارا يجمعبينواجبها كأميرة مسيحية ، وبين ما كانت تتعطش اليه من مجد وجاه . ولكن عوامل الرفض وعوامل القبول تساوت فى نظرها ، فظل قلبها حائرا بين حلين : اختيار الشرق مقرا ، أو ابقاء الغرب موطنا ..

غير أن حيرتها لم تدم طويلا ، فقد علم رجال الدين المقربون منها بما حدث ، وهرعوا اليها يتوسلون تارة ويهددون اخرى ، فنجحوا فى التغلب على ترددها ، واقنعوها بوجوب الرفض ، فرفضت ..

وعاد « ريكاردوس » الى الحاحه فزجرت الاخت اخاها ، وطلبت منه ان لا يعود الى التحدث فى موضـوع قتلتـه بحثا فلم يستسغه ضميرها ، ولكنها رجته بأن يبلغ « الملك العادل سيف الدين » تحياتها ، ويؤكد له أنها تعده بين الامراء الكرام اميرا كريما ، وترجو ان يحـل السلام والوئام بينه وبين أخيها بدون ان تكون هى الثمن المفروض !

***

كان « ريكاردوس » راغبا فى اتمام ذلك الزواج رغبة اكيدة . فكان رفض أخته ضربة قاسية عليه . ولكنه لم يفقد الامل ، بل بذل محاولة اخيرة لدى « الملك العادل » فطلب منه أن يعتنقالدينالمسيحى لكى يزوجه اخته بالرغم منها ، ويتنازل له عن جميع الاماكن التىيحتلها جيشه فى فلسطين ..

وأدرك صلاح الدين واخوه ان عرض ريكاردوس الجديد محاولة يائس وعد ويعز عليه ان لا يفى بوعده . فلم يغضبا ولم يؤنبا الملك الانجليزى على ما اقترحه عليهما ، بل ابلغاه ان امنيته لا يمكن تحقيقها، ودعياه الى الاجتماع بسيف الدين لاستئناف حديث الصلح على اسس جديدة ..

وكان كل من الطرفين يخشى الاخر ولا يرغب فى العودة الى منازلته فى الميادين ، فلبى «ريكاردوس قلب الاسد» الدعوة ، وتم الاجتماع فى مضارب نصبت فى منتصف الطريق بين يافا والنطرون ، فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١١٩١ .

ذهب « ريكاردوس » الى خيمة « الملك العادل » فاستقبله « سيف الدين » بالترحيب والاكرام ، ورد له الزيارة فى خيمته حيث تناول الوانا من الاطعمة الغربية .. وفى مساء ذلك اليوم ، جلس « ريكاردوس » وحاشيته ، و « سيف الدين » ورفاقه ، حول سماط حوى ما لذ وطاب من الاطعمة الشرقية ، وكانت احدى المغنيات العربيات تطرب المدعوين بصوتها الرخيم اثناء المادبة ، وتضرب على العود ضربا اثار اعجاب ريكاردوس فخلع عليها رداءه المزركش !

***

عقد الصلح بين ريكاردوس وصلاح الدين بعد ذلك الحادث بقليل ، وعاد ملك الانجليز الى بلاده ، مشيعا بتحيات السلطان وتمنياته ..

وفى الطريق ، اسره اعداؤه فى هنغاريا فافتدى نفسه بالمال ، واشتبك فى حروب متواصلة ، دارت رحى حرب منها مع اميرتولوز « الكونت ريمون السادس » ، وانتهت بصلح بين العدوين ، وتزوج الكونت اخت الملك ، « جان الانجليزية » ، فى سنة ١١٩٦ . واصبحت الملكة السابقة ، التى رفضت الجلوس على عرش القدس ، اميرة على مقاطعة تولوز الفرنسية .

ومات « ريكاردوس قلب الاسد » فى سنة ١١٩٩ ، ودفن فى مدينة « روان » بفرنسا ، وكان فى الثانية والاربعين من العمر .

أما « جان » اخته ، فقد امتشقت الحسام وحاربت معزوجها ريمون السادس جنبا الى جنب ، فى خلال الثورة التى نشبت فى امارته ، ودحرت الثائرين وقادت الجيش الذى حاصرهم فى قلعة « كوزار » وانتصرت عليهم ..

وعاجلتها المنية فجأة فى مدينة « روان » ، فى سنة ١٢٠٠ ، فحزن عليها زوجها حزنا شديدا ..

وتركت « جان الانجليزية » صندوقا من خشب الارز ، تلقته بعد سقوط عكاء هدية من اخيها ريكاردوس ، واحتفظت فيه بحليها وجواهرها .. ولما فتح ريمون السادس ذلك الصندوق بمفتاحه الذهبى الذى كانت زوجته تحمله فى عنقها ، وجد بين الحلى والجواهر غلافا من الجلد المموه بالفضة ، وفى داخله قرطاس كتبت عليه كلمات باللغة العربية ، وكان كثيرون من أهل تولوز يعرفون هذه اللغة قراءة وكتابة ، بالنظر الى العلاقات بين مدينتهم والامارة التى انشأها فى لبنان واحد من أشرافهم ، فى خلال الحرب الصليبية الاولى ..

اما الكلمات العربية التى دونت فى القرطاس ، فكانت تحية من « الملك العادل سيف الدين أبى بكر » ، وتهنئة الى « جان الانجليزية » بزواجها من الكونت ريمون السادس ، فى سنة ١١٩٦ ، ودعاء الى الله بأن يجعل ايامها منعمة بالسعادة والهناء ..


حصان
الملك

قال صلاح الدين ليعقوب الفران :

حدثنا يا يعقوب عن ملك الانجليز واعد على مسامعنا ما رواهلك رجاله عن كرمه وشهامته وشجاعته ، فاننا والله لمعجبــون بالبطولة ، ولو كان صاحبها خصمنا وعدونا ! . .

كان السلطان الفاتح يتأهب فى تلك الليلة لخوض معركة «ارصوف» الفاصلة فى حربه مع الصليبيين بقيادة ريكاردوس «قلب الاسد» ملك انجلترا . . وكان صلاح الدين قد عزف عنه الشيء الكثير ، وواجهــه فى الميادين وشاهد اعماله العجيبة ، وأدرك ان الغرب فى هذه المرة قد رمى الشرق بجبار عنيد ، ولكنه اراد فى تلك الليلة المزيد من المعرفة، فطلب الى « يعقوب الفران » أن يقص عليه فى ذلك المجلس جــــديداً من حوادث عدوه ونوادره على مسمع من قواد جيشه ورجال حاشيته .

اما « يعقوب الفران » فنصرانى من أبناء انطاكية ، التحق مع لفيف من مواطنيه بجيش السلطان ، وعهد اليه الملك العادل ــ اخو صلاح الدين ــ فى اعداد الخبز للمقاتلين . وكانت الحروب الصليبية قد فقدت الكثير من طابعها التعصبى ، وصبغتها الدينية ، فانضم كثــيرون من مسيحيى الشرق الى جيوش المسلمين ، كما تحالف الامراء المسلمون مع زعمـــاء المسيحيين فى بعض الظروف .

وراح يعقوب يقص على صلاح الدين واخيه ومن فى مجلسهما من كبار القواد والاعيان ، كيف ان ذلك الملك يمتشق سيفا يزن بضــــعة أرطال ويضرب به جوادا فيشطره الى شطرين . وانه كثيرا مايثب على المحاربين فى وسط المعركة فيقبض بيديه على اثنين من اعدائه ويضرب راس الواحد براس الآخر ، فيتركهما جثتين هامدتين ! وانه مع ذلك كان يوصى رجاله دائما بأن يمتنعوا عن الاجهاز على خصمهم اذا ما جرح فى القتال ، والا يضربوا عدوا سقط السيف من يده . والا يتعرضوا لمن يجدونه فى طريقهم من الشيوخ والنساء والاطفال !

وكان صلاح الدين يصغى الى حديث يعقوب باهتمام واغتباط ، فلما انتهى التفت الى جلسائه وقال : «الا تشاطروننى الراى فى أنه خير لنــا ان ننازل خصما من الطراز الاول ، حتى ولو تساوينا معه فى القتال ، من ان ننازل خصما لئيما جبانا ، ونحرز عليه نصرا ليس من العظمــة على شيء ؟ ان جل ما أتمناه ايها الابطال الاماجد ، أن أصارع قلبالاسد بقلب مثل قلبه ، وارد على شهامته بشهامة مثلها . وقد يتاح لى أن افعل هذا فى معركة الغد ، وان غدا لناظره قريب » !

فى اليوم التالى ، ٥ آب ــ أغسطس ١١٩٢ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٨٨ لهجرة ، التقى الجيشان فى معركة « ارصوف » ، أو معركة يافا الثانية . وكان صلاح الدين الايوبى فى الخامسة والخمسين ، وريكاردوس قلب الاسد فى الخامسة والثلاثين ، وكان ميناء يافا فى ذلك اليـــوم موضوع الرهان بين العدوين العنيدين !

***

قاد جيش الافرنج ريكاردوس بنفسه . وقاد جيش المسلمين صلاح الدين وأخوه . واحتدم القتال منذ الفجر ، وظل يشتد حـــدة حتى غروب الشمس فامتلأ السهل الممتد حول المدينة البحرية الحصينة بأشلاء القتلى والجرحى ، وجثث الخيول وحطام الاســـلحة ، واصطبغ اديم الارض بالدماء القانية ، وحامت الغربان والنسور فى الفضاء ، تبحث خلال الغبار المتصاعد عن غذائها ، قبل ان تنتهى المعركة ويتفرق المقاتلون

كان صلاح الدين والملك العـادل يشرفان على الميـــدان من فوق تل صغير . أما ريكاردوس ، فقد انطلق فى مقدمة جنوده ، وبيده سـيفه المشهور ، يضرب به الهامات ويجندل الفرسان ، والســهام تنهمر عليه كالمطر المدرار من كل جانب وصوب ، حتى لقد شبهه المؤرخون العـرب فيما بعد بالقنفذ المدرع بأشواكه ، لكثرة ماعلق بثوبه وسرج حصـــانه من السهام والنصال !

فى تلك المعركة الهائلة ، ضرب ريكاردوس ضربة السيف الفريدة ، التى تناقلها الرواة ودونها التاريخ فى صفحاته ! فقد اغار عليه اميرعربى وبيده رمح صوب سنانه الى صدره ، فتفادى ريكاردوس الطعنة ، وهوى بسيفه على غريمه ، فشطر جسمه شطرين من راسه الى خصره ، ولم تنقذه درعه الفولاذية من تلك الضربة الرائعة .

وأمام تلك القوة الخارقة رفع فرسان المسلمين السيوف والرماح فوق رؤوسهم ، لا ليضربوا بها ذلك الملك الشجاع ، بل ليؤدوا له فى الميدان تحية الاكبار والاعجاب !

ووثب أمير عربى على فارس من الاعداء وضرب ضربة قطـع بها عنق جواد الانجليزى ، فرفع ريكاردوس وفرسانه ســـيوفهم تحية للعربى وهتفوا له وهللوا ! . .

وتوقف القتال الى حين . . .

***

واستؤنفت المعركة بعد قليل بشدة لا هوادة فيها من الطرفين . وحدث ان قتل جواد ريكاردوس فأعطاه احد رفاقه حصانا آخر قتل ايضـــا ،

فاخذ حصانا ثالثا قتل مثل سابقيه . فاعتلى قلب الاسد صخرة فى وسط الميدان وراح يضرب بسيفه ويواصل القتال على قدميه ...

وعلت صيحة من الجانب الاخر . ونادى المنادون : « تفرقوا عن ملك الافرنج يا رجال ! »

واذا بفارس عربى يشق الصفوف قادما من التل الذى اتخذه صلاح الدين واخوه الملك العادل مرقبا لهما يديران منه دفة القتال ، وكان الفارس يقود وراءه جوادين مطهمين . فاقترب من الملك وخاطبه قائلا :

ـ أيها الملك ، ان مولاى السلطان صلاح الدين واخاه الملك العادل ، وقد شاهدا فعالك فى حومة الوغى ، يبعثان اليك بأطيب التحيات ، ويرسلان اليك هذين الجوادين ، « الطارق » من السلطان ، « والمارق » من أخيه ، هدية لك وتقديرا لشجاعتك ، لكى تواصل القتال وانت راكب ، لانه لا يليق ببطل مثلك ، وضارب سيف من طرازك ، أن يحارب وهو واقف على قدميه ! .

كانت دهشة ريكاردوس عظيمة . لكنه تقبل الهدية شاكرا ، وقال للرسول :

ـ عد الى السلطان الشهم واخيه العادل ، ورد اليهما تحيتى ، وقل لهما أن ريكاردوس سيعلن على الملأ أن الفضل فى انتصاره فى معركة أرصوف يرجع الى ما أبدياه نحوه من شهامة ونبل وكرم اخلاق .

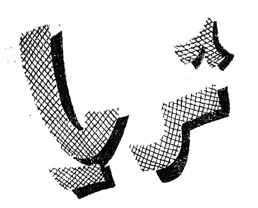
وواصل ريكاردوس القتال . وربح المعركة ودخل ميناء يافا فى اليوم التالى .

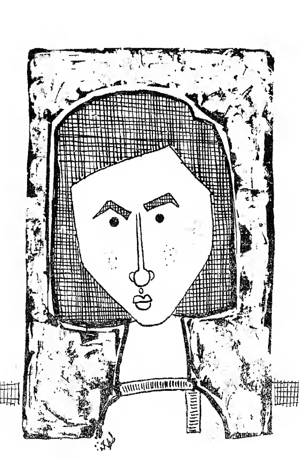
***

دب الخلاف بين قادة الحملة الصليبية الثالثة ، وامتنع ريكاردوس قلب الاسد عن مهاجمة بيت المقدس ، وعقد مع صلاح الدين الايوبى صلحا مؤقتا . ونشأت بين سلطان المسلمين وسيد ملوك النصارى فى ذلك العهد صداقة متينة ، وراح كل منهما يفرط فى الثناء على الاخر ، ويتغنى بصفاته وشمائله !

وظل ريكاردوس قلب الاسد الى اخر أيامه يذكر بالخير خصمه الشهم النبيل ، ويروى لجلسائه كيف أن صلاح الدين واخاه اهدياه جوادين فى وسط المعركة ، لكى يواصل القتال وينتصر !




ثريا





عندما انتهى الجندى « غليوم » من كلامه ، نظر اليـــه مولاه « روجيه بيكون » وسأل :

ــ اواثق انت مما تقول ؟

فانحنى الجندى الى الارض واجاب :

ــ نعم يا مولاى !

سكت روجيه لحظة اطرق فيها مفكرا ثم رفع راسه وســـــأل ثانيـــــة :

ــ وهل عرفتك الفتاة كما عرفتها أنت ؟

ــ عرفتنى .. وتذكرت تلك الايام السعيدة التى كنت اقوم فيها بخدمتكما هناك فى قصر والديكما فى سكوتلندا ..

ــ ما العمل اذن ؟ وماذا قالت لك ؟

ــ قصت على قصتها، وحدثتنى عما قاسته من عذاب وماتجرعته من مرارة ، منذ وقوعها فى الاسر الى اليوم ..

ــ ينبغى لنا ان ننقذها . وساضحى فى سبيل ذلك بكل شىء . لن اذوق راحة بعد الان ما دامت اختى ترسف فى قيود الذل والعبودية

ــ سننقذها يا مولاى !.. يجب أن ننقذها !..

ــ سأرفع الامر الليلة الى مليكى ريكاردوس قلب الاسد لـكى يرى رايه فيه !

***

نهض « روجيه بيكون » وجعل يروح ويجىء فى مضربه كأســـــد اصابه سهم حاد ..

كان يحب اخته « مارى » حبا جما . وعندما لبى النداء العام ، وسافر مع جيش ريكاردوس قلب الاسد ملك الانجليز الى الاراضى المقدسة متطوعا فى الحرب الصليبية ، الحت عليه اخته بأن يصطحبها معه ، فأجابهــــا الى رغبتها وسافر الاثنـــان معا الى الســـــواحل الشرقية ..

***

كان السلطان صلاح الدين الايوبى قد سحق جيش الافرنج فى

« طبريا » ومزق شملهم شر ممزق . وانتزع منهم بيت المقدس وبسط سلطان العرب على سورية ومصر

ودعا ذلك الانتصار الباهر ملوك الغرب الى تجريد حملة جديدة على الشرق . فدقت الاجراس والنواقيس ودوت الطبول وهتفت الابواق وعلت أصوات المنادين الى الجهاد . فتألب الشبان والكهول من كل فج وصوب الى معسكرات الجيش ، فى المانيا وفرنسا وانجلترا .. وحمل البحر الزاخر من الغرب الى الشرق جحافل الحرب الصليبية الثالثة بقيادة الملوك الثلاثة : بربروس الالماني وفيليبأوغست الفرنسى وريكاردوس قلب الاسد الانجليزى .

وكان ذلك فى سنة ١١٨٩ للميلاد الموافقة سنة ٥٨٥ للهجرة .

مات العاهل الالماني غرقا فى الطريق . ووصل رفيقاه بجيشيهما المشترك امام عكاء الحصينة فهاجما اسوارها واستوليا عليها بعد قتال عنيف .

هناك جرح روجيه بيكون بضربة مزراق اخترقت كتفه اليسرى فنقل مع المصابين من أبناء قومه الى المستشفيات .

وعندما ابتعد فرسان العرب عن الاسوار حملوا معهم الاسرى والسبايا . وكانت الفتاة «مارى» أخت الجندى «روجيه» بين النساء اللواتى سباهن الجنود .

***

سنة ١١٩١ ميلادية الموافقة سنة ٥٨٧ للهجرة ...

الفتاة تدعى الآن «تريا» وتقيم فى قصر الملك الناصر يوسف صلاح الدين بين السرارى والجوارى ، وقدحكم عليها القدر ان تقضى بقية حياتها بعيدة عن وطنها وأبناء عشيرتها .

اشفق عليها الملك الناصر عندما قصت قصتها ، فامر بأن لا يلحق بها اذى وان تظل حرة فى حدائق القصر ودهاليزه الواسعة .

لكنها كانت كالعصفور السجين تطوف فى ارجاء القصر ناظرة الى النور من خلال السجف الشفافة والنوافذ الضيقة ، الى الغابات ترتع فيها الثعالب والضباع والى مسارح الغزلان فى سفوح الجبال ، الى الفضاء اللانهائى تسبح فيه النسور والعقبان .

حسدت الطيور الصغيرة والجوارح تطاردها لان تلك الطيور حرة فى فضائها

وآثرت استنشاق هواء ميادين القتال وقد سممته نتانة الجيف

وعفونة الجثث ، على استنشاق هواء القصور وقد امتزج بعبير الورود والياسمين .

هناك وعلى تلك الحالة رآها خادم روجيه ــ الجندى «غليوم» ــ وكان مولاه ريكاردوس قلب الاسد قد بعثه برسالة الى الملك النـــاصر صلاح الدين .

عمد الجندى الى الحيلة وتمكن من محادثة الفتاة . فعلم منها كيف وقعت فى الاسر وأنها تتحين الفرص السانحة للفرار من سجنها .

ولكن ، كيف السبيل الى الفرار والقصر يعج بالنساء والرجال ، والحدائق محاطة بالاسوار العالية ، والحراس والجنود يملاون السهول والطرقات .

حمل الجندى الخبر الى روجيه بيكون ، فاسرع الشاب الى مولاه الملك وألقى بنفسه على قدميه باكيا ، طالبا منه المعونة لانقاذ أخته من الاسر .. فطيب ريكاردوس خاطره وهدأ روعه ، ووعده بانه ســيحقق امنيته قائلا له :

ــ اعلم أن السلطان صلاح الدين شهم همام ، شريف النفس عالى الهمة عادل رحيم ، وقد اثبتت لى الحوادث ذلك بما لم يترك مجـــالا للشك ..

الا تذكر ياروجيه تلك الموقعة التى التحمنا فيهـا مع جنــــود السلطان ، على مقربة من يافا ، والتى قتل فيها جوادى ، فأرسل الى صلاح الدين واخوه جوادين اصيلين ، حتى لا أكف عن القتال بل امضى فيه الى النهاية ؟ الا تذكر أيضا اننى قلدت ابنه الشــــاب سيــف الفروسية فى ميدان القتال اعترافا منى بجراته وشجاعته ، ونزولا على رغبة ابيه ؟ أننا ياروجيه نحارب ابطالا مثلنا ، يضعون قواعد الشرف وتقاليد الفروسية نصب أعينهم فى كل ظرف وحال . وسأكتب الى صلاح الدين طالبـا منــه ان يعيد اليك اختــك ولن يرفض لى رجاء !

فشكر الجندى للملك عطفه عليه ، وقال له :

ــ هذا هو املى ورجائى أيضا يامولاى . فقد قال صلاح الدين مرة فى مجلس جمع أقطاب العرب فى هذه البلاد : « لن يقال أنه وجــد بين من حكموا العرب من هو أكرم من يوسف صلاح الدين ! »

***

وكتب ملك الانجليز الى ملك العرب الخطاب الآتى :

« أيها الملك ..

« حامل خطابى ، جندى من جنودى البواسل ، وهو بطل لاقى ابطالك فى الميادين ، وأبلى مثلهم فى القتال البلاء الحسن . وقعت أخته أسيرة فساقها رجالك الى قصرك . كانت تدعى مارى ، فاطلقتم عليها اسم ثريا . وللملك الانجليز رجاء يفضى به الى ملك العرب : اما ان تعيد الى الاخ اخته ، واما ان تحتفظ به أسيرا معها فلا تفرق بين من جمعهما الله ولا تحكم على عصفور بأن يعيش بعيدا عن عشه

« انى فى انتظار قرارك . واذكرك بقول امامكم عمر بن الخطـــاب وقد تلقنته عن صديقى الامير حارث اللبنانى : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احرارا ؟ »

***

فامتطى روجيه بيكون اسرع الجياد ، وراح ينهب الارض نهبـا الى مقر السلطان وسجن شقيقته

ومثل بين يدى الملك الناصر ، فدفع اليه الكتاب ووقف ينتظر الرد وقلبه يخفق وشفتاه تختلجان

قرأ صلاح الدين الكتاب ورفع نظره الى الشاب المضطرب ، ويده تعبث بلحيته الكثيفة ، وقد ارتسمت على فمه ابتســـامة هى علامة الرضا والارتياح

ثم دعا روجيه الى الجلوس وقال :

ـ يسرنى ايها الفتى أن اجيب مليكك الى رغبتـــه ، وأن يكون حامل رسالته الى بطلا من ابطاله الشجعان ، وان اصافح هذا البطل مصافحة الجندى للجندى ! سأكون عند حسن الظن بى ، ولن ارفض لريكاردوس طلبا .

وامر السلطان برد الفتاة الى اخيها . ومد يده الى روجيه فأكب الشاب عليها يقبلها وقد تساقطت دموع الفرح من عينيه

وكتب صلاح الدين الايوبى الى ريكاردوس قلب الاسد هـــذا الرد على كتابه :

« أيها الملك . .

« صافحت الجندى الباسل الذى بعثت به رسولا الى . فليحمل اليك المصافحة ممن عرف قدرك فى الميادين . لن احتفظ بالاخ أسيرا مع أخته لاننا لا نستبقى فى بيوتنا الا أسلاب المعارك . لقد أعدنا للاخ أخته . واذا ما نزل صلاح الدين على قول عمر بن الخطاب ، فانمـا فعل ذلك لكى ينـــزل ريكاردوس على قول عيسى : « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! » فارحل ايها الملك عن أرض ليست ملكا لك وأعدها الى اصحابها الذين اغتصبتها منهم ! »


الناصر
والناسك



خرج رسل صلاح الدين الايوبى من دمشق راكبين البغال لا الخيول مجردين من الاسلحة، عدا الخناجر مدسوسة فى محازمهم ، دليلا على أن النية التى تخالج صدورهم طيبة ، والمهمة التى خرجوا لادائها سلمية .

حرصوا على الا يثير منظرهم الشكوك والريب عند الاصدقاء وعند الاعداء على السواء ، وان يعتقد من يراهم انهم تجار يجوبون البلاد . فاجتازوا الجبال والهضاب والوديان التى الفوها او الفها بعضهم منذ خمسة اعوام ، ومروا فى مناطق يسكنها المسلمون والدروز والمسيحيون ، حتى بلغوا بأمان وسلامة تلك الصومعة التى يقصدون اليها حاملين الى الناسك الذى يعيش فيها ، هدايا السلطان مشفوعة بتحياته وتمنياته .

تلقى الرجل التمنيات والتحيات والهدايا شاكرا . ووضع امام الرسل قرصا من عسل النحل ، وكمية من الفاكهة البرية المجففة ، وقطعة من الخشب ملاها بماء النبع ، فأكلوا وشربوا واخذوا قسطا من الراحة ، ثم هموا بالانصراف عائدين من حيث اتوا ..

ودعهم الناسك فى هذه المرة ايضا ، ولكنه اضاف الى كلمات الوداع عبارات طلب منهم أن يعيدوها على مسامع السلطان ..

قال الناسك : « سأقضى ليلة العيد ويوم الفصح جاثيا على ركبتى، اتضرع الى الله لكى يطيل فى عمر الملك الناصر ويزيده عزا على عزومجدا على مجد . ولكن ملاك الموت الحاصد سوف يرفرف بجناحيه فوق هذه الصومعة . ويختطف منها الناسك الغريب الذى حباه صلاح الدين بعطفه وشرفه بصداقته : اننى اخطو نحو نهاية حياتى الخطوات الاخيرة . ففى مثل هذا اليوم من العام القادم ، ستكون هذه الصومعة قد تحولت الى قبر ، وتكون روحى بين يدى خالقها ، ليحاسبها على مسلك هذا الجسم الفانى فى هذه الحياة الدنيا !. وهذه اخر رحلة من رحلاتكم ! »

***

ذهب الرسل ، وبقى الناسك مع ذكرياته !

عادت به الى الوراء عشرة اعوام كاملة .

جاء « مرثان آدان » واخته « بلانش » الى الارض المقدسة فى عام ١١٨٢ ميلادية ، الموافق لعام ٥٧٨ للهجرة ، مع فوج من الجنود

والحجاج الفرنسيين ، ونزلا فى مدينـــة « صـــور » حيث كان الملك « بودوان» الذى يسميه العرب « بلدوين » يقضى عيد الميـلاد ضيفا على الاسقف المؤرخ « غليوم الصورى »

كانت المدينة اللبنانية تابعة لمملكة أورشليم الصليبية ، ومهــددة مثل عاصمة المملكة ، بهجوم مفاجىء من جانب القوات التى حشــدها صلاح الدين الايوبى فى الديار السورية ، لاسترجاع أرض فلسطين من الافرنج .

ادى مرثان واخته فريضة الحج الى قبر المسيح فى بيت المقدس ، والى مهده عليه السلام فى بيت لحم ، واستقرت الاخت فى صور حيث انصرفت الى أعمال البر والاحسان ، والعناية بالمرضى والجرحى ، وفاء لنذر قطعته على نفسها قبل أن تغادر وطنها مهاجرة الى الشرق

اما الاخ ، فقد تطوع فى جيش الصليبيين ، وعرف بمهــارته فى استخدام الاجهزة القاذفة للهب والقطران والماء المغلى ، فى حصارالقلاع والدفــاع عن الاســوار ..

ذاعت شهرته بين قوات الصليبيين وقوات المسلمين على السواء .. فان صلاح الدين الايوبى كان حريصا على أن ينشىء فى جيشـــه وحدات تتخصص فى مقاومة الوحدات المماثلة لها فى جيش العدو .وقد عنى عناية خاصة بتدريب الخبراء الذين عهد اليهم فى مواجهة الوحدة التى كان يقودها مرثان أدان ، بالنظر الى ماكان الخبير يلحقه من أضرار بجنود السلطان ، فى المعارك وأعمال الحصار التى يشترك فيها .

قضى مرثان خمسة أعوام متنقلا من مدينة الى مدينة ، ومن حصن الى قلعة ، ملبيا اوامر رؤسائه ، مؤديا واجبه كاملا كجندى قطع على نفسه عهدا بأن يحارب بدون هوادة ، وأن لايكف عن القتال الا فى احدى حالتين : الموت فى الميدان ، او الوقوع فى الاسر

فى نهاية السنة الخامسة بعد وصوله الى فلسطين ، ساهم فى آخر معركة ، وفى آخر حصار !

ففى صيف سنة ١١٨٧ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٨٣ﻫ للهجرة ، وقع الصدام الرهيب الحاسم بين السلطان صلاح الدين الايوبى وملك الافرنج جى دى لوسينيان ، فى سفح جبل حطين ، على ضـــفاف بحيرة طبريا ، حيث التحم الجيشان فى معركة دامية ، كتب فيها النصر لصلاح الدين ، وكانت هزيمة الافرنج كاملة ماحقة ..

افنى الجزء الاكبر من جيش لوسينيان ، ووقع الملك فى الاسر مع فريق من قواده وجموع كبيرة من جنوده ، وفر الباقون طالبـين

النجاة خلال السهول والهضاب ، على أمل ان يصلوا الى بيت المقدس ويحتموا بأسوارها ..

فى تلك المعركة ، ابلى مرثان بلاء حسنا ، وتفنن فى استخدام سلاحه الفتاك ، مما استرعى أنظار صلاح الدين وقواد جيشه ، واثار غضبهم الممزوج بالدهشة والاعجاب ..

وتمكن الرجل من الفرار بعد الهزيمة ، فكان بين الذين وصلوا الى بيت المقدس ، وقصوا على حاميتها تفاصيل الكارثة التى حلت بالملك وجيشه فى حطين !

قررت الحامية أن تصمد خلف أسوار المدينة المقدسة ، وبدات تعد العدة للمقاومة ، فى انتظار قدوم صلاح الدين بجيشه المظفر ، وضرب الحصار على عاصمة المملكة ، بعد أن خلا له الجو وفتح امامه الطريق ..

وتأهب مرثان للمساهمة فى الدفاع ، بعد ان ساهم فى المعركة الاخيرة ..

أسبوعان دار فيهما الصراع عنيفا متواصلا فى الليل والنهار ، بين الجيش المحاصر والحامية المحصورة . واظهر مرثان آدان فى استخدام أسلحته ما الفه منه الفريقان المتقاتلان من تفنن وبراعة وعناد . فأثار الرجل للمرة الاخيرة دهشة بنى قومه ودهشة اعدائه على السواء ..

وسقطت المدينة ..

دخلها صلاح الدين الايوبى دخول الفاتحين فى اليوم الثانى من شهر اكتوبر سنة ١١٨٧ ، أى بعد ثلاثة شهور من معركة حطين التى يعرفها الافرنج بمعركة طبريا ..

أصبح سكان المدينة كلهم ، سواء اكانوا من الجنود ام من غير المحاربين ، أسرى حرب بمقتضى القوانين والتقاليد المعمول بها فى ذلك الوقت .

أفرج عن فريق منهم مقابل فدية دفعت لبيت المال . وافرج صلاح الدين عن فريق بدون مقابل .. وكان مرثان آدان بين هذا الفريق ..

طلب السلطان ان يجيئوه بقاذف اللهب ، فمثل الرجل بين يدى الفاتح المنتصر ، الذى دعاه الى الجلوس وتبسط معه فى الحديث .. عرض عليه أن يخدم فى جيشه ، ووعده بمكافاة سخية . لكن الرجل

رفض معتذرا ، وقال ان ماضيه كان ناصعا ، فلا يريد أن يلطخ سمعته بالعار ، فيحارب قومه ، ويغدر بعشيرته !

اكبر صلاح الدين مشاعره ، وكرر له أعجابه بمهارته ، وتقديره لبطولته ، ثم ختم حديثه معه قائلا :

ـ انت حر طليق يا مرثان ، ولكن للقرار الذى اتخذه الان بشأنك شرطا أود ان أعرف اذا كنت موافقا عليه ..

فقال الرجل قبل أن يذكر له السلطان ذلك الشرط :

ـ اشكر لك صنعك ايها المولى واود من ناحيتى أن افضى اليك بالقرار الذى اتخذته انا تجاه نفسى : فقد اعتزمت ان اهجر الحياة بين الناس ، وأن اعتزل الخدمة فى الجيش ، فان وقوعى فى الاسر قد حلنى من قسمى ، وسأذهب الى جبل لبنان حيث ابحث عن منسك اقضى فيه بقية العمر !

مد السلطان يده الى قاذف اللهب ، وقال :

ـ صافحنى يا مرثان : ان الشرط الذى كنت اريد ان أربطك به هو عهد منك بأن لاتحارب رجالى بعد الان . وقد سبقتنى ولبيت رغبتى قبل أن افضى بها اليك .. فاذهب بسلام !

فأكب مرثان آدان على يد صلاح الدين ، وطبع عليهـا قبلة حارة ، وقال : « سأصلى لله أيها المولى ، لكى يعيد السلام والمحبة الى هـذه الارض المقدسة ، ويبعد عنها شبح الحرب ، ويجعل الناس جميعا اخوة واصدقاء . »

درج صلاح الدين الايوبى على عادة ظل محافظا عليها الى اخـر سنة من حياته ، وقد ذكرها المؤرخون الغربيون وامتدحوا السلطان من أجلها

ففى اعياد النصارى ، وعلى الخصوص فى عيد الميلاد ، كان الملك الناصر يبعث بهداياه الى فريق منهم ، ويطوف بنفسـه على بعض البيوت ، ويوزع المال والزيت والدقيق على الفقراء ، ويأمر أحيانا بأن يمتنع جنوده عن القتال فى تلك الاعياد ، ليتركوا لاعدائهـم فرصـة الاحتفال بها ..

ولما اقترب عيد الفصح ، بعد سقوط القدس ، اعد صلاح الدين العدة للقيام بمثل هذا العمل الذى الفه الناس منه ، وارسل من يسأل عن قاذف اللهب السـابق ، مرثان آدان ، واذا كان قد بر بوعده ، وتنسك فى الجبال .

وجاءه الخبر اليقين بأن الرجل يقيم فى منسك اختاره لنفسه فى مكان منعزل ذكروه له .

فالى اين ذهب مرثان آدان بعد اطلاق سراحه من الاسر ؟

زار أخته فى مدينة صور . واطلعها على عزمه . فوافقته على ما اراده لنفسه . وقررت من ناحيتها أن تنتقل الى مدينة بيروت -وكانت فى ذلك الوقت خاضعة لحكم صلاح الدين - وان تقيم فيها منصرفة ايضا الى مواساة المرضى ..

- أما مرثان ، فقد خرج وحده وتوغل فى جبل كسروان من سلسلة جبال لبنان ، فصعد فى وادى نهر الكلب ، وبلغ الجرد حيث اختار موضعا بالقرب من ملتقى نهر اللبن بنهر العسل وقرر أن يكون هناك منسكه ..

بنى بيديه كوخا من أغصان الشجر ، عند الجسر الطبيعى المكون من صخرة واحدة تربط بين ضفتى الوادى ، وهو المعروف باسم «جسر الحجر » ، ويعتقد الناس ، بناء على اسطورة تناقلتها الاجيال المتتابعة ان ابانا آدم عليه السلام هو الذى رمى الصخرة من ضفة الى ضفة يوم مر بلبنان بعدطرده من الجنة !

فقد اعتبر مرثان آدان ان الاقدار هى التى ساقته الى ذلك المكان فاسم «آدان» هو التحريف الافرنجى لاسم « ادم » وجسر الحجرالذى رفعه أبو البشرية بيديه القويتين خير مكان اذن لاقامة الناسك الهارب من الناس !

هناك استقر مرثان آدان - أو آدم - خمسة أعوام كاملة ، فى عزلة وتقشف وصلاة ، بعد أن خاض غمار المعارك خمسة أعوام سابقة ..

والى هناك أوفد اليه صلاح الدين الايوبى رسلا يحملون اليه تحيات السلطان وهداياه فى عيد الفصح بعد سقوط بيت المقدس وانهيار مملكة أورشليم ..

والى هناك كان الرسل يقصدون فى كل سنة ، فى مثل ذلكاليوم لاداء تلك المهمة ..

وكان الناسك يتقبل الهدايا والعطايا بالشكر والدعاء للسلطان الكريم ..

وبعد انصراف الرسل ، كان يخرج من منسكه ، ليوزع ما تلقاه فى العيد على الفقراء والمعوزين من سكان القرى والحقول ، فى تلك الجبال الوعرة

زارته اخته مرة واحدة ، وماتت فى بيروت بعد سنتين من انتقالها اليها من مدينة صور ..

كان الرسل يخرجون اليه من بيروت أو من دمشق، حسب الظروف والاحوال ، وكان القرويون النصارى يعرفون المهمة النبيلة التى من اجلها يجتاز اولئك الرسل جبالهم ، فيرحبون بهم ، ويرافقونهم أحيانا الى مقر الناسك عند جسر الحجر ، ليشاهدوا القديس ويأخذوا بركته ؟..

للمرة الخامسة ، فى سنة ١١٩٢ ميلادية الموافقة لسنة ٥٨٨ للهجرة، جاء الرسل من دمشق ..

وللمرة الخامسة تقبل الناسك الهدايا ، وكان بينها فى هذه المرة صليب قالوا له ان السلطان يخصه به : لانه ملك لناسك مثله ، جاء من جبال الاردن الى بيت لحم لزيارة مهد المسيح ، فقضى نحبه هناك، ورأى السلطان أن يكون صليبه من نصيب الناسك مرثان .

وفى تلك المرة ، فاه الناسك بالعبارات التى وعده الرسل بان ينقلوها الى الملك الناصر : « .. فى مثل هذا اليوم من العام القادم ، ستكون هذه الصومعة قد تحولت الى قبر ، وتكون روحى بين يدى خالقها .. وهذه آخر رحلة من رحلاتكم .»

***

هل قرأ الناسك المتعبد ما يخبئه الغد ، فى صفحات الغيب لا..

فى أوائل سنة ١١٩٣ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٨٩ للهجرة ، فاضت روح الملك الناصر صلاح الدين الايوبى فى دمشق الفيحاء .. وعمت المآتم وارتفع النواح فى جميع ارجاء الدولة المترامية الاطراف .

وفى عيد الفصح من تلك السنة ، لم يخترق رسل السلطان على بغالهم جبال لبنان فى طريقهم الى جسر الحجر ..

ولما قصد سكان القرى الى صومعة الناسك الغريب ، وجدوه قد فارق الحياة منذ بضعة ايام ..

كان ممددا على ظهره ، وقد ضم يديه على الصليب الخشبى الذى جاءه هدية من السلطان فى العيد السابق ولم تقترب منه الوحوش الضارية ، ولم يتطرق الفناء الى جثمانه

فتنادى الناس للصلاة عليه ، ودفنوه فى المكان الذى تنسك فيه !


وفاء السّلطان



القتال على اشده ، والصراع رهيب ، وضروب الفروسية من الناحيتين متلاحقة متواصلة . وكفة المعركة تتأرجح بين كر وفر ، تميل ساعة الى هذا الفريق ، وساعة الى الفريق الاخر .

كان ذلك فى سنة ٥٧٦ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٨٠ ميلادية ، يوم داهم الملك الناصر صلاح الدين الايوبى ، سلطان الديار الشامية والمصرية ، جيشا من الافرنج يقوده ملك القدس بلدوين الرابع ، كان قبل بضعة ايام قد نصب كمينا لكوكبة من الفرسان العرب ، وافناها عن آخرها ، فأسرع السلطان الى الاخذ بثار رجاله ، قبل ان تبرد دماؤهم ، فوقع الاصطدام بين الجيشين فى بلدة مرجعيون ، بجبال لبنان الجنوبية .

لم يكن عدد المقاتلين كبيرا من الجانبين ولكن وجود الملكين فى مقدمتهم جعل منهم جميعا ابطالا صناديد ، فأبوا الا ان تكون المعركة حاسمة فاصلة ، وحولوها الى مجزرة كست اشلاؤها الارض وصبغتها الدماء بحمرة قانية .

وفى غمرة المعمعة ، اخذت عين صلاح الدين منظرا طار له قلبه جعل منهم جميعا ابطالا صناديد ، فأبوا الا ان تكون المعركة حاسمة المقربين اليه ، كبت به فرسه ، فاوشك ان يهوى عنهما ، واحاط به ثلاثة من رجال بلدوين ، شاهرين سيوفهم تأهبا للفتك به ..

اصيب الفارس بضربة سيف فى كتفه ، وقبل ان تدركه ضربة ثانية كان صلاح الدين قد وثب وبادر الثلاثة بضربات ثلاث صائبات ، فانقذ الرجل من موت محقق ..

وعانقه ، لا عناق الرئيس لمرؤوسه ، والمتبوع لتابعه ، بل عناق الصديق لصديقه ، والاخ لاخيه ..

لكن السلطان أصيب ايضا ، فى ذلك الاشتباك ، بجرح فى زنده الايمن ، من ضربة سيف سددها اليه واحد من الثلاثة قبل أن يصاب بدوره ..

واختلط دم الجريحين فى ذلك العناق الاخوى .. وتم الاخذ بالثار فى تلك المعركة . فقد انجلت عن احراز العرب انتصارا رائعا ، ووقوع بعض القواد الافرنج فى الاسر فافتداهم الملك بالمال ، وتهادن الفريقان وكفا عن القتال لدفن القتلى ونقل الجرحى الى مكان أمين .

***

فى بيت منعزل ، عند مشارف مرجعيون ، جلس صلاح الدين بجوار الفارس الذى انقذ السلطان حياته فى المعركة ، وراح يواسيه بنفسه ، ناسيا انه مصاب مثله بجرح يتطلب الاسعاف والعناية ...

قال الفارس الجريح وهو يلثم اليد التى دفعت عنه الموت بضربات السيف الثلاث :

ـ ان حياتك يامولاى لاغلى بكثير من حياتى . فكيف تعرضهاللخطر من اجلى ، وهى الذخيرة الثمينة ، التى تفديها شعوب مصر والشام بالمهج والارواح .

فاجاب صلاح الدين وقد ارتسمت على محياه امارات الغبطةوالامل:
ـ مافعلت أنا اليوم ياصابر غير مافعلته انت بالامس مرتين . ويلذ لى الآن أن أستعيد معك تلك الذكريات الحلوة ، التى عشنا حوادثها معا جنبا الى جنب ، يارفيق العمر .

وفى سكون الليل ، على ضوء السراج الزيتى ، بينما الجنود المنتشرون فى البلدة وحولها ، يأخذون قسطهم من راحة استحقوها ببطولتهم ، أو يتغنون باناشيد قومهم على انغام الناى ، عاد الجريحان بالذاكرة الى الوراء اعواما عديدة .. عادا الى عهد الطفولة ، فى مدينة بعلبك بلبنان ، يوم كان يتولى شئونها نجم الدين ايوب ، والحروب قائمة حولها على قدم وساق .

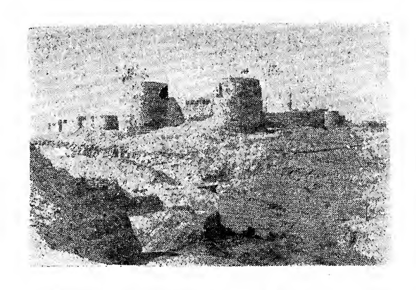
فى المدينة طفلان لايفترقان ، العابهما مشتركة بينهما ، يخرجان معا فى مغامرات جريئة ، خلال الجبال والوديان ، وينتصر الواحد منهما للآخر فى كل مشاجرة يشتبك فيها أطفال المدينة .

الطفلان هما : صلاح الدين بن نجم الدين ايوب ، صاحب بعلبك ، وصابر العمر ، من أبناء العشائر فى جبل الهرمل .

انهما ، بالرغم من صغر سنهما ، دائبان على التمرين المتواصلعلى استخدام الاسلحة من كل نوع ، القوس والسهام ، السيف والرمح ، الخنجر والفأس .. اما سمعا نجم الدين يقول يوما لزوجته أم صلاح الدين : « ساصحب ولدنا الى ميادين القتال يوم يبلغ العاشرة » ؟

انهما اذن يستعدان للقاء ذلك اليوم : صلاح الدين ليرافق اباه ، وصابر العمر ليلحق بصديقه الصغير . وخرجا ذات صباح الىالهضاب المحيطة بالمدينة ، وقضيا نهارهما فى رشق السهام ، ومطاردة الحجال فوق الصخور . ولما انهكهما التعب ، وشعرا بالجوع والظمأ ، عولا على العودة ، واستلقيا فى ظل شجرة وارفة ، لاستعادة انفاسهما ، وتجديد قواهما .

وفجاة ، طلع عليهما ذئب اغبر ، فاغر الفم بارز الانياب . ووثب على صلاح الدين وانشب مخالبه فى ذراعه . وفى اللحظة ذاتها ، كان صابر العمر قد استل خنجره ، وبسرعة البرق اغمد نصله فى عنق



أبراج من عهد صلاح الدين فى قلعة القاهرة المعروفة باسمه



الوحش الهائج ، ودار صراع عنيف بين الطفل المدافع عن رفيقه،والذئب الذى ارتد نحوه وقد ضاعف الالم هياجه . ولما افاق صلاح الدين من ذهوله ، كان الوحش صريعا عند قدميه ، وصابر العمر يواصل طعنه بخنجره وقد أضحت ثيابه حمراء .. وتعانق الصديقان الصغيران ، واختلطت دماء جراحهما فى ذلك العناق الاخوى .

لم ينس صلاح الدين ذلك اليوم الذى انقذ فيه صابر العمر حياته ، فى هضاب بعلبك ..

بلغ الطفلان العاشرة ، فاصطحبهما نجم الدين أيوب معه الى الميادين، واشتركا فى القتال جنبا الى جنب مع الكبار .

بلغا سن الشباب وطور الفتوة ، فازدادت روابط الالفة والتعاون بينهما توثيقا . وبقى صابر ملازما لصلاح الدين ملازمة الظل ، فى أيام السلم وأيام الحرب على السواء .

تزعزع عرش الفاطميين فى مصر ، فتطلع اليه سلطان الديار الشامية نور الدين محمود ، وأوفد الى الديار المصرية واحداً من خيرة قواده ، أسد الدين شيركوه ، الذى اصطحب معه ابن اخيه الشاب صلاح الدين يوسف ، فوجد صابر العمر نفسه فى مصر مع صديقه .

مات شيركوه فخلفه صلاح الدين ، وتولى الوزارة وقيادة الجيش. ثم قضى على الخلافة الفاطمية ، وخدمه الحظ فمات نور الدين فى وقت واحد ، وخلا الجو للايوبى لكى يحقق حلمه ، وهو الاستيلاء على الحكم فى البلدين .

كان ذلك فى سنة ٥٦٧ للهجرة الموافقة لسنة ١١٧١ ميلادية . وكان صلاح الدين فى الرابعة والثلاثين من العمر . وبدت للعيان بسرعة مواهبه العجيبة ، وتجلت آيات نبوغه ، وراح يقطع المراحل واحدة بعد واحدة، بقدم ثابتة وعزم لايعرف الكلل ، الى الاوج الذى شاءت الاقدار أن ترفعه اليه .

زحف على سورية بعد أن اطمأن على سلطته فى مصر ، وتوالت المعارك وتتابعت معها الانتصارات .

وكان رفيقه الامين الى جانبه ..

حارب معه فى دمشق وحلب ، فى اللاذقية وحمص وحماه ، فى بيروت وصيدا ويافا وعسقلان : كان صابر العمر يعنى براحة السلطان ، ويسرج له الفرس بيده ، ويسهر على اعداد الطعام له ، ويشحذ له الأسلحة ويصونها .

وفى معركة حمص ، بين جيش صلاح الدين وقوات حلب والموصل بقيادة سيف الدولة غازى ، فى سنة ١١٧٤ م ، حدث ان توغل صلاح الدين كعادته فى صفوف المقاتلين ، فابتعد عن رجاله ، واصيب جواده بسهم فسقط على الارض وفارسه تحته يتعذر عليه الخلاص . ومانجا السلطان من الموت اختناقا فى ذلك اليوم ، الا بفضل رفيقه الملازم له ، صابر العمر ، الذى انقذه من ورطته .

وقال صلاح الدين لصديقه ، وهو يضحك مما حدث : « لم تكن الميتة تحت جثة حصان لائقة بمن يقود الجيوش فى الميادين ياصابر »، وتعانق الرجلان ، واختلطت ضحكاتهما فى ذلك العناق الاخوى .

***

مرتان انقذ فيهما صابر العمر حياة الملك الناصر صـــلاح الدين يوسف : مرة فى بعلبك ومرة فى حمص ، وهما الحادثان اللذان جعـلا السلطان يقول لصابر ، يوم انقذه بدوره فى معركة مرجعيون : « مافعلت انا اليوم ياصابر غير مافعلته انت بالامس مرتين » .

تلك هى الذكريات التى استعادها الرجلان ، فى البيت المنعزل ، على ضوء السراج فى سكون الليل .

واستأنف صلاح الدين حروبه وغزواته ، فى جبهتين معا . لتوحيد مابقى من الديار الشامية تحت سلطته ، من ناحية ، ولاستخلاص ماتبقى من ارض فلسطين فى ايدى الافرنج ، من ناحية اخرى .

وظل صابر العمر على ملازمته للبطل الذى وقف له حياته ،وربط مصيره بشخصه . وكان صلاح الدين يكرر دائما قوله لصابر : « لقـد وفيت نحوك دينى مرة واحدة . فمازالت انت صاحب الفضل » .

وفى مجالسه مع عظماء الدولة وقادة الجيش ، كان صـــلاح الدين يكثر من الاشارة الى وفاء صابر واخلاصه ، ويسميه « رفيق العمر ».

ومضت الاعوام ، وحقق صلاح الدين احلامه ، وبلغ اهدافه ،وانشأ فى الشرق الادنى دولة عظيمة تنوعت مفاخرها ، وتعددت امجـادها ، وترامت فى الاتساع حدودها ..

كتب له النصر فى معركة حطين ، فى سنة ٥٨٣ هجرية ، الموافقةلسنة ١١٨٧ ميلادية ، فدخل بيت المقدس ، وحصر البقية الباقية من الافرنج فى بضع مدن ومواقع على ساحل الارض المقدسة ، وانصرف الى تدبير الشئون الادارية والتجارية والصناعية .

عرض على صابر العمر ان يتولى الحكم فى اية حاضرة من حواضر الدولة ، فاعتذر رفيق العمر ، ورجا الســلطان ان يتركه على حاله ، صديقا ، وملازما ، وخادما ، واجابه صلاح الدين الى رجائه .

فى سنة ٥٨٩ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٩٣ ميلادية ، كان الملك الناصر صلاح الدين يوسف الايوبى فى عاصمته الشامية دمشق . وكان السلم مخيما على أرجاء الدولة . والرسل يروحون ويجيئون بين المدينة الزاهرة الزاهية ، وعواصم الشرق والغرب على السواء .

وفى بيت صغير متواضع ، على مقربة من قصر السلطان الباذخ، كان صابر العمر قد استقر وحيدا ، لا أهل ولا زوجة ولا ابناء حوله . ظل يعيش من أجل السلطان ، ومن خير السلطان ، الذى ظل من ناحيته يغمره بعطفه ، ولا يخرج من العاصمة بدون ان يسمح له بأن يكون فى ركابه وبين حاشيته .

قال صابر العمر ذات يوم لصلاح الدين ، والقلق والاضطراب باديان على وجهه : « انك تعلم يامولاى اننى ممن يصدقون الاحلام ويجيدون تفسيرها . ولقد طالما بعث ذلك ابتسامة على شفتيك ، ووصفته بأنه اوهام فى اوهام . ولكننى بالامس حلمت حلما ازعجنى . فقد رايتك فى المنام عائدا من رحلة صيد ووجهك شاحب ، والعرق يتصبب من جبينك . فقلت لى ان الرحلة كانت شؤما عليك . وانها ستكون الاخيرة . »

فابتسم الملك الناصر وقال لصاحبه : « وما معنى هذا الحلم ياصابر؟ »

واجاب الرجل : « معناه يامولاى مطابق لما حلمت به . وقد علمت انك خارج الى الصيد فى صباح الغد ، أفلا تصغى الى نصيحتى ، وتعدل عن عزمك ؟ »

فابتسم صلاح الدين أيضا ، وقال لرفيقه : « لقد حلمت انا ايضا ، فى الليلة الماضية ، باننى كنت اعاتب نفسى فى احد مجالسى ، وعلى مسمع من رجال حاشينى ، فقلت لهم اننى مدين لك بالحياة مرتين ، وقد كنت لك وفيا مرة واحدة ، وبقى على ان اكون وفيا مرة ثانية . وستكون المرة الثانية يوم يصيبك ، لا سمح الله ، أذى . فاذا أدركك الموت قبلى ، لحقت بك . واذا ادركنى قبلك ، كان موتى تصفية لدينى لك . »

وسكت الملك الناصر ، ومزق صابر العمر السكوت بقوله : « وهذا ايضا يامولاى حلم لايبشر بالخير . فأستحلفك بالله بأن تلزم قصرك غدا، ولا تخرج الى الصيد . واذا فعلت ، فاننى سوف اتخلف عن مرافقتك للمرة الاولى فى حياتى . وسوف أقضى يومى فى المسجد الاموى ،أصلى واتضرع الى الله بأن يحفظك ويبعد عنك الشر والاذى . »

وللمرة الاولى ، خرج صلاح الدين يوسف الايوبى فى رحلة لم يكن فيها رفيق العمر صابر العمر فى ركابه . ظل اسبوعين كاملين يطارد الغزلان ويصطاد الطيور فى البرارى والجبال ، شرق العاصمة دمشق . وكان يصحبه أخوه الملك العادل ، ونخبة من الفرسان والرماة . .

وعاد من رحلته مريضا .. اصابته الحمى الصفراء ، فلزم فراشه .. وأسرع صابر العمر الى قصر السلطان ليطمئن على صحته . وكان قد قضى تلك الايام كلها فى الجامع الكبير ، لايغادره فى النهـــار ولا فى الليل ..

تمتم صلاح الدين قائلا : « هاقد تحقق حلمك ياصابر . فياليتنى اصغيت الى نصيحتك وعملت بها . »

فأجاب صابر : « عسى الله يامولاى أن يحول دون تحقيق حلمك انت. »

وتعانق الرفيقان ، واختلطت انفاسهما فى ذلك العناق الاخوى .

تحقق الحلم الثانى .. فقد عاد صابر العمر الى بيته ، مصابا بالحمى الصفراء مثل سيده ، وقد انتقلت اليه العدوى منه .

وفى الســدس والعشرين من صفر سنة ٥٨٩هـ للهجرة ، الموافقة لسنة ١١٩٣ للميلاد فى اثناء النهار ، مات صابر العمر ، وهو يذكر اسم صلاح الدين يوسف ، ويرجو له الشفاء من مرضه .

وفى الســابع والعشرين من صفر ، لفظ الملك النــاصر الايوبى انفاسه الاخيرة ، فى السادسة والخمسين من العمر .
لم يترك مالا ولا عقاراً . ولكنه ترك مجـــدا خالداً واسما لا تزال حروفه ترن فى آذان التاريخ .

وكان بموته وفيا لصــديقه مرة ثانية . فقــد مات « رفيق العمر » فى النهار ، ولحق به السلطان فى الليل . أما الرفيق المتواضع الذى لازمه فى حياته ولم يفارقه الا يوم موته ، والذى رفض المــال والمناصب ، ومات فى بيت صغير ، فقد نسى الناس اسمه ، ولا يعرفه أحد فى أية بقعة من المدينة الكبيرة يرقد رقاده الاخير .


يوسف
الحبيس



في سنة ١٢١٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٤٦١ للهجرة ، تنادى ملوك الافرنج ملبين دعوة البابا ، وقرروا تجريد حملة صليبية جديدة لانتزاع الاراضى المقدسة من ايدى المسلمين ، بعد ان ادت وفاة الفاتح العظيم صلاح الدين الايوبى الى تطرق الضعف فى دولته المترامية الاطراف ، والتى اقتسمها خلفاؤه من بعده . وعرفت تلك الحملة فى التاريخ باسم « الحرب الصليبية الخامسة » .

نقلت اذن مئات من السفن الاجناد والعتاد الى الساحل السورى وبعد انقضاء سنة كاملة فى اخذ ورد لا طائل تحتهما ، وتهرب كل فريق من الالتحام بالفريق الاخر ، تحركت الحملة من جديد ووجهتها مصر والقت السفن مراسيها امام ميناء دمياط وشاطئها . وكان ذلك فى سنة ١٢١٧ ، الموافقة لسنة ٦١٥ للهجرة .

دافع عن المدينة المصرية فى تلك المحنة الامير نصر الدين محمد ، ابن الملك العادل سيف الدين ، الذى آل اليه الحكم فى مصر بعد وفاة اخيه صلاح الدين .. وكان فى القدس فأسرع الى نجدة ابنه ، ولكن المنية وافته قبل ان يصل الى مصر ، فنودى بنصر الدين سلطانا باسم الملك الكامل .

ودارت رحى القتال بين المصريين والافرنج . وسقطت دمياط فى قبضة هؤلاء بعد بضعة شهور من دفاع مجيد وصراع مرير . وتراجع الملك الكامل بجيشه ، واستقر فى مكان انشأ فيه مدينة عرفت فيما بعد باسم « المنصورة » .

وبات الفريقان صامدين وجها لوجه ، يرقب كل منهما الاخر ، ويتحفز للانقضاض عليه : الافرنج يريدون التوسع والتوغل فى داخل البلاد ، والمصريون يتاهبون لاسترجاع ما ضاع من أرض وطنهم ...

فى هذه الاثناء ، وصل الى مقر السلطان الملك الكامل نصر الدين محمد ، رجل غريب فى نهاية العقد الثالث من العمر ، تصحبه امراة فى العقد السابع ، متكئة على ذراعه ، تجالد المرض البادى عليها بوضوح . وكان الرجل اعزل من كل سلاح ، لا يحمل غير عصاه ، وقد علق فى كتفه جرابا فيه زاد وماء .

طلب الغريبان بالحاح المثول بين يدى الملك الكامل فأذن لهما نصر الدين ، وعرف منهما ان المراة فرنسية وأن الرجل الذى يصحبها هو ابنها ..

وأصغى السلطان اليهما وهما يقصان عليه قصتهما ، ويفضيان اليه بالغرض الذى من أجله غادرا دمياط وطلبا المثول بين يديه

فقالت المراة :

ــ ايها الملك : ان هذا المجندى الذى تراه امامك بلا سلاح ، ولدفى الارض المقدسة منذ حوالى ثلاثين سنة ، اى فى الفترةمن الحرب الصليبية الثالثة التى حاصر فيها الصليبيون مدينة عكاء ، وحاصر جيش صلاح الدين الايوبى المحاصرين انفسهم من البر ، فاصبحوا بين نارين : نار الحامية فى داخل الاسوار ، ونار الجيش الذى احاط بهم من الخارج فهناك ، فى معسكر الافرنج ، وضعت مولودا هو هذا الذى تراه معى الآن. وقد مات زوجى بعد مولد الطفل بأسبوعين ، فى وثبة من وثبات جيشنا على اسوار المدينة المحاصرة ..

فقاطعها الملك الكامل سائلا :

ــ وما الذى حملك على مرافقة زوجك ؟

ــ الرغبة فى الحج الى بيت المقدس . وقد تحققت رغبتى ... ولكن دعنى اقص عليك الحوادث حسب وقوعها .. فقد بلغ الطفل نهاية السنة الاولى من عمره ، والحالة باقية على ما كانت عليه : الافرنج يحاصرون المسلمين فى داخل المدينة ، والمسلمون يحاصرون الافرنج من الجبال والسهول الواقعة حول عكاء .. وفى ذات يوم ، فوجئنا بهجوم كوكبة من الفرسان على أحد اركان المعسكر ، وفى غمرة الضوضاء والاضطراب ، تفقدت ولدى فلم اجده . وعلمت ان المهاجمين عادوا على أعقابهم ومعهم اسلاب واسرى ، وان واحدا منهم اخذ الطفل وانصرف به من حيث جاء ! .. وطار لبى .. فجعلت ابكى واندب حظى : لقد مات زوجى وفقدت وحيدى، وأنا فى بلاد الغربة . فهل يبقى على الآن موت كمدا وحسرة . غير ان بعض الجنود من رجالنا نصحونى بأن اذهب بنفسى الى قائد المسلمين وكبيرهم صلاح الدين الايوبى ، وكان فى ذلك الوقت مع رجاله أمام عكاء ، واشكو اليه ما حدث . فذهبت ... نعم ذهبت بنفسى الى ذلك الملك العظيم العادل الرحوم .. وركعت أمامه ... فأمسك بيدى وامرنى بأن اقف على قدمى .. وسألنى ماذا اريد فقلت له : أريد ولدى الذى سرقه رجالك من كنفى فحرمونى فلذة كبدى .. وامر السلطان فى الحال بأن يجرى البحث عن الطفل .. فعاد رجاله يقولون انه بيع فى السوق وان امراة اشترته ... فأمر صلاح الدين بأن يؤخذ الطفل من المراة ، على أن يعاد اليها الثمن الذى دفعته، من ماله الخاص .. وهكذا ما حدث : فقد عاد الى ولدى . ولما سألت السلطان كيف يمكننى أن أعبر له عن فرحى وعرفانى لجميله ، قال لى « ليكن اسم هذا الطفل « يوسف » واذا وجدت نفسك واياه فى محنة مرة اخرى ، فتعالى الى صلاح الدين كما جئت اليه اليوم !.. »

وسأل الملك الكامل ، مشيرا الى رفيق المرأة :

ــ وهذا هو يوسف ؟

ــ نعم ، هذا هو الطفل يوسف ، الذى أصبح الآن رجلا .. وقد اذن لى صلاح الدين ، بعد ذلك الحادث ، بالذهاب الى بيت المقدس فى حراسة اثنين من رجاله . فذهبت ، وقمت بفريضة الحج الى قبر السيد المسيح ، ويوسف الصغير على ذراعى ...

سكتت المرأة . فقال نصر الدين :

ــ علمت الآن كيف بدأت قصتك منذ ثلاثين سنة .. فهل لك ان تطلعينى الآن على ما حدث فى خلال هذه المدة الطويلة ، وما الذى قادك الى مصر مع يوسف الذى أصبح كبيرا ؟

فاجابت الفرنسية :

ــ لقد جاء دوره ... فهو الذى سيروى لك بقية القصة ..

كانت المرأة تتكلم بالعربية . وتابع ابنها الحديث بالعربية أيضا فقال :

ــ مكثنا فى الارض المقدسة خمسة أعوام ، لقينا خلالها من السلطان صلاح الدين ، ثم ممن خلفوه فى الحكم هناك ، كل عطف ورعاية ... وتعلمت اللغة العربية من صغرى ، كما تعلمتها امى أيضا ، ثم رحلنا عائدين الى وطننا فرنسا ، ومنذ ذلك الوقت حافظنا على عادة التخاطب بهذه اللغة فيما بيننا .. وقد ترعرعت وكبرت ، وذكرى تلك الايام الاولى من حياتى باقية فى ذهنى راسخة متينة .. أما الآن ، فقد التحقت بالحملة الصليبية وجئت ثانية الى الشرق ، لا لكى احارب واقاتل ، بل لكى أزور المكان الذى ولدت فيه ، وافضى الى الذين خلفوا صلاح الدين فى الحكم بما احفظه فى نفسى من اجلال وتمجيد لذكرى ذلك العاهل النبيل .. وانت ايها الملك خليفته على عرش مصر ... والحرب قائمة الان بينك وبين جماعة من بنى قومى ، نزلوا فى أرض هى ارضك ، واحتلوا مدينة هى ملكك .. وقد جئت الآن اقترح عليك ، بدون استشارة احد من قادة الافرنج ، التوسط بينك وبين أعدائك لعقد صلح يكون فى مصلحتك لا فى مصلحتهم .. فهل لك أن تأتمننى وتطلعنى على رغباتك وشروطك ؟

فأجاب الملك الكامل :

ــ أعطنى فرصة يوما وليلة للتفكير فى الامر . وانت وامك منذ هذه اللحظة ضيفان على !

كان الملك العادل فى مركز حرج . فالاعداء على الابواب . بل انهم طرقوا تلك الابواب واقتحموا منها واحدا . وابناء عمومته وحلفاؤه من الامراء غير قادرين على نجدته ، لان كلا منهم منهمك فى اعـداد العـدة للدفاع عن نفسه واملاكه . فلا سبيل الا للتفاوض والتضحية ، ريثما تسنح فرصة أخرى لاخذ الثأر .

اوفد نصر الدين اذن الزائر الفرنسى يوسف الى قادة الافرنج فى دمياط ، وعرض عليهم بواسطته أن يسلمهم خشبة الصليب التى اخذها صلاح الدين من ملك القدس فى معركة حطين ، سنة ١١٨٧ للميلاد وان يتنازل لهم ايضا عن ثلاث مدن فى الارض المقدسة ، مقابل رحيلهم عن دمياط واعادتها الى اصحابها ..

ذهب يوسف الى دمياط ، وبقيت أمه فى ضيافة السلطان الذى قدمها لزوجته « مؤنسة خاتون » ابنة عمه صلاح الدين الايوبى ، فاكرمت وفادتها ، واتخذتها منذ اللحظة الاولى صديقة لها ..

ومضت أسابيع والرسول لم يعد من رحلته : ذلك لانه لم يوفق الى اقناع رفاقه بقبول الشروط التى كلفه الملك الكامل بعرضها عليهم . وعبثا حاول الرجل أن يبعث الخوف الى نفوسهم ، قائلا ان السلطان يتأهب للاخذ بالثأر ، وانه قادر على مهاجمتهم واسترجاع المدينة منهم قوة وقسرا . فقد ظلوا متشبثين بعنادهم . ولما أدرك يوسف ان لا فائدة من أطالة البحث ومواصلة الجدل ، قفل راجعا الى الملك الكامل واطلعه على ما حدث .

وقال الرجل :

ـ ايها المولى : أننى اعود اليك وفى نفسى ما فيها من موجدة على بنى قومى . وقد ثبت لدى انك كريم مسالم ، وانهم لا يضمرون غير الشر .. ولهذا ، فاننى انصحك بمضاعفة جهدك فى الاستعداد للقتـال واضع تحت تصرفك خبرتى ومعرفتى بحالة قومى اكثر منك ، ان كنت تؤمن بأننى مخلص صادق .. فقد عرضت عليهم صلحا بشروط سخية رفضوها . وهم يعتقدون أن فى وسعهم مهاجمتـك والتغلب عليك . ولكنهم فى اعتقادهم مخطئون .. فانت امنع مركزا منهم ، وجيشـك أوفر عددا من جيشهم وفى وسعك انت أن تكون المهاجم الغالب ..

فسكت الملك الكامل ، واطرق مفكرا ، ثم خاطب الغريب بلهجة تنم عن الشك فقال :

ـ ولكن ... كيف تعمل ضد قومك ، وكيف تحمل السـلاح فى وجه بنى وطنك ؟

ــ فأجاب يوسف :

ــ ان أحاربهم بالسلاح كما اننى لم احاربكم انتم بالسلاح ، ولن اقتل واحدا منهم كما اننى لم أقتل أحداً منكم ... ولكننى مدين لواحد من ملوككم بالحياة . ولولاه لكنت الآن بين العبيد الارقاء فى قصر من قصور الشرق . فان صلاح الدين لم يهبنى الحياة فقط ، بل وهبنى الحرية ايضا ، كما وهبهما للمرأة التى أحبها اكثر من اى شخص فى العالم وهى أمى!.. اما هؤلاء الذين اغتصبوا منكم مدينة واضرموا فيها النار ، واستعبدوا سكانها ، فانهم يثيرون فى نفسى استنكارا واشمئزازا . فلا أرى أن فى مساعدتكم على تخليص مدينتكم من قبضتهم خيانة نحو وطنى وقومى ، وخروجا على ما يفرضه على ضميرى !.. وأقسم لك بالله الذى اعبده ، وبالحب الذى أكنه فى صدرى للمرأة التى ولدتنى وبذكرى الرجل الذى اعادنى طفلا الى هذه المرأة اننى سأكون مخلصا وفيا فيما يمكن أن أسديه أليك من نصائح وارشادات ومعلومات فى خلال هذا الصراع بينك وبين مغتصبى دمياط !

فمد الملك الكامل يده ، وصافح الرجل الفرنسى ..

***

واصل السلطان منذ ذلك اليوم تأهبه للحرب بعد ان ايقن ان الصلح بعيد المنال .. وما مرت شهور حتى علم من يوسف ، الذى كان يروح ويجىء بين المنصورة ودمياط ، ان الافرنج تلقوا نجدة من الغرب وانهم يستعدون للزحف على الجيش المصرى ...

واطلع يوسف صديقه نصر الدين على ما توفر عند القوم من أسلحة وعتاد ، وعلى مواضع ضعفهم ، والثغرات التى يمكن ان تنفذ منها الضربات الصائبات الى صدورهم ، وكان مما قاله لهم :

ــ اننا الان فى وقت الفيضان . ومياه النيل ترتفع يوما بعد يوم . وليس لهؤلاء الافرنج علم بما يحوق بهم من مخاطر بسبب المياه المتدفقة الجارفة ... فعليك أن تقطع السدود عندما يبدأ زحفهم من دمياط ، لكى تحاصرهم المياه بدل ان يحاصروك هم ، كما حدث منذ ثلاثين سنة ، عندما حاصر عمك صلاح الدين الايوبى بجيشه ، جيش الصليبيين المحاصرين لعكاء .. !

وعمل الملك الكامل بنصيحة يوسف .

فما بلغه خبر خروج الافرنج عليهم بخيلهم ورجلهم من مدينة

دمياط ، حتى أوفد رجاله ليقطعوا سدود النيل . وتدفقت المياه من كل صوب ، واحاطت سيولها بالجيش الزاحف ، فاذاً بالافرنج يجدون انفسهم محاصرين في أرض تحولت في بضعة ايام الى جزيرة منعزلةعما عداها من أرض مصر ...

ولم يهاجمهم المصريون . ولم يشهروا في وجوههم سيفا ولا رمحا . بل باتوا في معاقلهم يرقبون ، ويرون ذلك الجيش الذى كان بالامس يزحف في خيلاء وضوضاء وقعقعة ، يتحول الى قطيع من الجياع ..

وأرسل قائد الافرنج يطلب المفاوضة في الصلح . فأوفد اليه الملك الكامل خمسة من رجاله ومعهم يوسف الفرنسى !

وعاد الوفد يعرض على السلطان ، باسم قائد الافرنج ، تسليم مدينة دمياط بلا قتال ، مقابل ترك الجيش المحصور يتراجع الى المدينة بلا قتال أيضا ، ليبحر منها الى حيث يريد !

وسلمت المدينة الى الملك الكامل ، وفتح المصريون طريقا للافرنج سلكوها نحو الشاطىء حيث اقلتهم السفن الى الغرب ..

وكان ذلك في سنة ١٢٢١ للميلاد ــ الموافقة لسنة ٦١٨ للهجرة ..

***

اما يوسف وأمه ، فقد بقيا في مصر ، حيث ماتت المرأة في قصر السلطان ، بعد ان عملت وصيفة لزوجته مؤنسة خاتون . ولما اصبح يوسف وحيداً في العالم ، طلب من السلطان نصر الدين السماح له بالرحيل الى جبل لبنان . فاذن له ، وزوده بمبلغ من المال ، فغادر يوسف ارض مصر ، واقام في احدى المغاور الواقعة في سفح جبل الارز ، بوادى قاديشيا ، حيث انصرف الى التنسك والعبادة ، فعرفه الناس باسم « يوسف الحبيس » .

وعاش الناسك طويلا ، وذاع صيته في البلاد ، وزاره السلطان بيبرس البندقدارى ، في غزوته السورية سنة ١٢٧٧ للميلاد . الموافقة لسنة ٦٧٥ للهجرة . وكان يوسف الحبيس قد جاوز العقد التاسع من العمر ..


الإخوة الأربعة



في سنة ٦٣٧ للهجرة ، الموافقة سنة ١٢٤٠ للميلاد ، خـرج الافرنج من بعض الحصون والقلاع التي كانوا يملكونها في جنوب جبل لبنان وشمال فلسطين ، وزحفوا على وادي التيم بقصد الاستيلاء على عاصمته حاصبيا ، والانتقام من امرائه الشهـابيين لما انزلوه بهم من هزائم سابقة ، فاستنجد امير وادي التيم ، عامر الشهابي ، بجاره عبد الله بن سيف الدين المعنى ، امير جبل الشوف ، واصطدم الفريقان جيش الافرنج وجيش الاميرين اللبنانيين ، في مكان يعرف بمرج الخيام، واحتدم القتال اربعة ايام متوالية ، تأرجح النصر خلالها بين الفريقين، حتى استقر في النهاية عند الاميرين ، فانكسر الافرنج وتقهقروا عائدين من حيث اتوا ، حاملين الجرحى ، تاركين القتلى .

في اليوم التالي ، عند الفجر ، استعاد اثنان من المقاتلين وعيهما ، فوجد كل منهما نفسه مستلقيا عى الارض بجانب زميله الجريح مثله، وقد امتزج الدم بالدم ، واختلطت الانفاس بالانفاس ..

وتذكر كل منهما ما حدث بالامس ...

في غمرة المعركة ، اشتبك اثنان من جنود الافرنج واثنان منجنود الاميرين ، في صراع عنيف وقتال مرير ، وابتعدواشيئا فشيئا عنالميدان وتوغلوا بين الصخور ، وانتهى الصراع بأن قتل واحد من كل جانب وجرح الاخران ، وسقط الجريحان جنبا الى جنب على بعد خطواتمن القتيـــــلين ..

تبادلا النظرات ، وادركا ان المعركة قد انتهت بدون أن يعرفا من الذي انتصر ومن الذي انهزم ...

وابتسم العدوان كل منهما للآخر ، وقد شعرا فجأة بأن المحبـــة حلت في قلبيهما محل البغضاء .

ــ من أنت ؟ .. ما اسمك ؟ ..

ــ انا من رجال الكونت فيليب دى مونفور .. التحقت منذسنة بقائد حصن الشقيف بلبنان .. اسمى ماثيو المرسيلى .. وأنت ؟..

ــ أنا من رجال الامير عامر الشهابي .. جئت من الحجاز .. مقرى مدينة حاصبيا .. اسمى حسن القواس ..

ــ والرجل الذى كان معك وقتل ؟

ـ هو اخى .. فرج السياف .. من رجال الامير عبد الله المعنى .. ورفيقك الذى قتل أيضا ، من هو ؟

ـ هو اخى .. الفونس المرسيلى ..

سكت الجريحان . وراح كل منهما يعالج نفسه ، ثم مال على جاره يعالجه ايضا من جراحه .

حسن القواس يواسى قاتل اخيه فرج .. وماثيو المرسيلى ينزع من قميصه رباطا لذراع الرجل الذى قتل اخاه الفونس .

وبكلمات قليلة ، وعبارات مقتضبة ، املتها عليهما الظروف الرهيبة تفاهم الرجلان ، واتفقا على ان لايعودا الى مقرهما ، وان يعتزلا الحياة بين الناس ، ويذهبا معا الى مكان بعيد عن المدن والقرى ، ويعيشا فى خلوة هادئة ساكنة ، عيشة النساك فى صوامعهم .

ولما اطلت الشمس من خلف الجبال الشاهقة ، وصبت اشعتها على الميدان الذى كان بالامس مسرحا لمذبحة تجلت فيها البطولة من الجانبين المتقاتلين ، كان العدوان اللذان اصبحا صديقين ، يبتعدان بين الشعاب ، ويسوقان امامهما حصانا جريحا مثلهما ، رفعا على ظهره جثتين : جثة القتيل الافرنجى ، وجثة القتيل العربى .

قررا الذهاب الى « جبل الشيخ » الرابض على مقربة من مرج الخيام ، على أن يقضيا فى سفحه او على قمته ما تبقى لها من العمر .

وفى الطريق ، قص كل منهما على الآخر قصته ..

***

قصة ماثيو المرسيلى بسيطة قصيرة ..

جاء الى الارض المقدسة ليزور بيت المقدس ومعه اخوه الفونس ..

سماه رفاقه « المرسيلى » لانه من ابناء مرسيليا ، المدينة الفرنسية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط ، حيث كان يمارس مع اخيه حرفة ارشاد السفن فى دخولها الى الميناء وخروجها منه وبعد سنتين من وصوله الى بيت المقدس ، تم للسلطان صلاح الدين الايوبى الاستيلاء على تلك المدينة على اثر معركة حطين ، فكان الاخوان ماثيو والفونس بين الاسرى الذين افرج عنهم السلطان المنصور بدون فدية ، فذهبا الى صور ، ثم الى صيدا ، ثم التحقا بخدمة الامراء الافرنج الواحد

بعد الاخر ، حتى انتهى بهماالامـــر الى البقاء فى قلعة الشـــــقيف بلبنـــــــان ..

وفى معـــركة مرج الخيام ، مشـــيا الى القتال بالرغم من وطـأة السنين ووهن الشيخوخة . وفى خلال المعركة ، اشتبكا فى ذلك الصراع مع الاخوين العربيين ، فكان مصير الفونس الموت بضربة من سيف حسن القواس وكان نصيب ماثيو ان اصيب بجرح فى كتفه افقده الوعى .. ولكن بعد ان طعن أحد الاخوين طعنة نافذة اردته قتيلا ، وصوب الى الآخر ضربة مزقت ذراعه .

ولما صحا من غشيته ، وجد نفسه على الارض بين الصخور ، يعانق الرجل الذى قتـــل اخاه وأوشـك ان يقتـــله .

***

اما قصة حسن القواس .. فهى اطول من قصـــة غريمه ، ومثيرة اكثـــــر منهـــا ..

كان منـــذ نعومة أظفاره ، شـــديد الولع برشـــق الســـــهام ومطاردة الغزلان والذئاب والثعالب فى جبل الحجاز . فنشـــأ صيادا ماهرا ، طبقت شهرته الآفاق ، وسارت بذكرها الركبان ، وكثيراً ماكان يتوغل مع اخيه فرج فى بطن الصحارى ، او فى الوديان المحيطة بقلعة ـ العقبة ـ أو فى الهضاب المشرفة على نهر الاردن حيث الحـــروب متواصلة بين الامراء من اهـــل البلاد والغزاة القـــادمين مـــن الغـــرب .

فى سنة ٥٧٩ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٨٣ ميلادية ، قام الافرنج بمغامرة بحرية وبرية ، فهاجموا بسفنهم سواحل مصر والحجاز ، بالبحر الاحمر ، وتمكن القائد حسام الدين لؤلؤ من التغلب عليهم وتحطيـــم مراكبهم وتشتيت شملهم . وكان حسن القواس وأخوه فرج بين الشبان الحجازيين الذين تطوعوا للقتـــال فى تلك الحرب الدموية . فدعاهمـــا حسام الدين لؤلؤ للذهاب معه الى مصر فلبيا الدعوة ، والتحقا بالجيش وانتقلا مع الكتائب التى ارسلت الى جنوب البلاد الشامية ، مما اتاح لهما فرصة الاشتراك فى معركة حطين ، بقيادة صلاح الدين الايوبى ودخول بيت المقدس مع الجيش المنتصر .

فى معركة حطين ، وفى حصار بيت المقـدس ، ادهش الحجازيـــان رفاقهما بما اظهراه من مهارة فى رشق السهام والضرب بالسيف ، فاطلق عليهما صلاح الدين نفسه الاسمين اللذين عرفا بهما فيما بعد : حســـن «القواس» نسبـــــــة الى القوس وفرج «الســـــياف» نسبة الى الســـــيف .

في حطين ، وثب مقاتل افرنجي وشق طريقه بين الكتائب ، رافعا سيفا ضخما بيديه الاثنتين ، فبادره فرج بضربة من سيفه قطعت اليدين معا وحزت جزءا من الـكتف .

وفي معركة حطين ايضا ، تسلل احد الرماة الافرنج الى الصفوف الامامية ، وهم باطلاق سهم على صلاح الدين . فبادره حسن بســـهم من قوســـه ، صائحا به : «خذها في العين اليسرى » فاصابه في عينه ونفذ الســـهم من الخـــلف .

وبعد معركة حطين ، لما جيء الى خيمة صلاح‌الدين بملك الافرنج وقواده اسرى مستسلمين ، امر السلطان بان تقـــدم لهم اقداح شراب الورد ، وان يقوم بهذه المهمة الاخوان حسن القواس وفرج الســـياف عمـــلا بتقـــاليد الضـــيافة ، التي كـان الملك النـــاصر الايـــوبي يحـــرص على التمســـك بها .. في الســـلم والحـــرب على الســـواء .

ولما مات صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٩٣ ميلادية ، بلغ الحزن من الاخوين الحجازيين مبلغه ، وفكرا في العودة الى موطنهما ، والانصراف من جديد الى الصيد ومطاردة الغزلان والذئاب والثعالب في الصحارى والجبال والوديان ..

ولكن الاقدار أرادت لهما غير هذا فقد كتب لهمـا في صفحاتهـــا أن يظـــلا بعيـــدين عن الارض المقدســـة في الحجـــاز ، وان يقضيا بقية العمر في الارض المقدســـة في الديار الشامية ، وان يطوى رفاتهما ســـــفح جبل الشيخ الاجـــــرد ..

قادتهما الظروف مرة الى حاصبيا ، القلعة اللبنانية المنيعة الـــتي اتخذها الشهابيون عاصمة لامارتهم بوادي التيم ، فاستبقاهما الاميرنجم الشهابي عنده ، وكانت شهرتهما قد بلغت مسامعه ، فوافق الاخـــوان على البقاء في ذلك الربع ، وقد استهواهما جمال الطبيعة ، واعـــــادت وعورة المسالك الى ذهنيهما صورة الجبال التي كانت مرتعا لمغامـــرات الشباب ، وسحر لبهما ماتجـــلى لهما عند الشهابيين من كـــرم ونبـــل وشـــــــهامة واباء ..

وصادف ذات يوم ان كان الامير سيف الدين المعني ، صاحب جبل الشوف ، في زيارة عند جاره وحليفه الامير نجم الشهابي ، فخطر له أن يتقدم باقتراح الى مضيفه ، وهو أن يتناوب الاخوان الاقامة في وادي التيم وفي جبل الشـــوف ، واحد منهما عند المعنيين ، وواحد عند الشهابيين لتمرين الجنود على ضرب السيف ورشق السهام .

وراق الاقتراح للامير نجم ، ولم يمانع الاخوان . وهكذا بقى حسن القواس وفرج السياف الحجازيان فى لبنان ، ضيفين مكرمين على آل معن وآل شهاب ، منذ سنة ٥٩٠ هجرية ، الموافقة لسنة ١١٩٤ للميلاد . .

كانا يضطلعان بمهمتهما مع المدربين فى الجيشين ، ويخرجان معا فى ساعات الفراغ ، للصيد فى الجبال والوديان ، ويتسلقان احيانا سفوح جبل الشيخ — وهو الذى يعرف ايضا بجبل حرمون ، حيث تكثر الوحوش من كل نوع .

وعلى قمة ذلك الجبل ، شيد الامير نجم الشهابى دارا اعدها للنزهة والراحة . واليها كان يدعو الاهل والاصدقاء والضيوف ، لقضاء ايام بين احضان الطبيعة ، أو لمطاردة الضباع والذئاب .

ومرت الاعوام متتابعة ، بعضها فى هدوء ، وبعضها فى اضطراب ،عام فى سلم وعام فى حرب . وزحف الشيب الى رأس حسن ، والى رأس فرج ، ولكن الشيخوخة لم تنل من مهارة الاول فى رشق السهام ولا من قوة الثانى فى ضرب السيف . .

مات الامير نجم الشهابى وخلفه ابنه الامير عامر ، ومات الاميرسيف الدين المعنىوخلفه ابنه الامير عبد الله . وفى عهدهما ، واصل ابطال وادى التيم وجبل الشوف الاشتراك فى المعارك التى كانت الارض المقدسة مسرحا لها منذ عشرات السنين .

وكانت معركة مرج الخيام آخر معركة خاض الاخوان غمارها . .

***

فى الطريق الى جبل الشيخ ، وفى اثناء الزحف البطىء على سفحه خلف الحصان الاعرج الذى اثقلت ظهره الجثتان ، جثة فرج السياف وجثة الفونس المرسيلى ، عرف كل من الرفيقين الجريحين قصة رفيقه ، كما رواها له بنفسه ، وهو يتكىء على عصا من أغصان الشجر ويصعد لاهثا نحو القمة المكللة بالثلوج . .

فى منتصف الطريق بين القمة والوادى ، توقف الرجلان عن السير فقد أدركهما الظلام ، وبدأ يطرق سمعهما عواء الذئاب الخارجة من جحورها ، فقال حسن : « هذه الذئاب ، سوف نروضها . » وردد ماتيو : « نعم ، سوف نروضها . »

قضيا ليلتهما الاولى فى كهف بجوار الجثتين ، وطالما كان حسن القواس من قبل قد آوى الى ذلك الكهف مع رفاق من الصيادين . . وفى

اليوم التالى ، قام الرجلان بدفن الجثتين فى قبرين متجاورين . وجعلا يفكران فى كيفية ترتيب حياتهما فى طورها الجديد .. حولا الكهف الى مسكن .. وجلبا من القرى والحقول ماكان لابد منه لاعداد الطعام والفراش والحماية من الوحوش .

ومرت اسابيع ، وشهور ، واعوام .. عرف الناس بامرهما ، وبما حدث لهما ، وماقرراه من اعتزال الدنيافى ذلك المنسك البعيد ،فاحترموا ارادتهما ، واكبروا مشاعرهما .. ولم تهدأ الحروب حولهما ، وظلت المعارك دائرة ، متقاربة او متباعدة ، فى الجبال والوديان والسهول والسواحل .. ولكن جبلهما الوعر الشامخ ظل فى منأى عن ذلك التناحر الدموى ، ولم يعكر جوه صليل السيوف وصفير السهام..

عواء الذئاب وحده كان يعكر ذلك الجو ، لكن عواء الذئاب تغير مع الوقت بالنسبة الى الناسكين ولم يعد مرعبا مروعا .. فبعد ان قضى حسن القواس عمره فى اصطياد الذئاب ، ختم ذلك العمر فى ترويضها وساهم معه رفيقه مائيو فى تلك الهواية العجيبة .

حول الرجلان بصبرهما ، وجلدهما ، ومهارتهما ، ذئاب جبل الشيخ المفترسة الى كلاب اليفة . وعاشا معها بضعة أعوام فى سلام ووئام ،

فكانت جيرتها اوفر امانا فى بعض الاحيان ، من جيرة الانسان .

وفى سنة ٦٤٨ هجرية ، الموافقة لسنة ١٢٥٠ ميلادية حل اجل الناسكين ، وفاضت روحاهما فى وقت واحد ..

او هذا ما اتضح للقرويين ، عندما صعدت جماعة منهم الى الكهف الموحش ، بعد ليلة باردة مظلمة ، تصاعد فيها عواء الذئاب بكثرة ، وتحول الى مايشبه الندب والنواح . فقد وجدوا الصديقين العجوزين جالسين عند باب الكهف ، وقد وضع كل منهما يده على كتف الاخر ، وقد فارقتهما الحياة . .





على مســــافة بضعة كيلو مترات الى الجنوب من مدينة طرابلس، المتربعة على شاطىء البحر عند سفح جبل الارز بلبنان ، دير تكتنفـــه الحقول والصخور ، وتحمل جدرانه العالية عبء القرون فلا تنوء بـه وتضم بين جوانبها فريقا من الرهبان الروم الارثوذكس ينصرفون فى تلك العزلة الى الصلاة والعبادة ، ويعدون فريقا من الطلبة الفتيان لمرتبـــة الكهنوت ، ويستثمرون خيرات الارض التابعة لديرهم

يعرف ذلك الدير باسم « دير البلمند » من قديم الزمان ، ويرجع تاريخ انشائه الى اواسط القرن الثانى عشر للميلاد . فقد شيده جماعة من رهبان « سيتو » الفرنسيين سنة ١١٥٧ ، حول كنيسة بيزنطيـــة متهدمة ، واقاموا فيــه الى اواخر القرن الثالث عشر . ثم تفرقـــوا مع من تفـــرق ن الجماعات الدينية الصليبية .

ولم يتفق المؤرخون على سبب تسمية الدير باسم «بلمند» وعلى اصل هذه الكلمة فى لغة الصليبيين الافرنج . فقد تكون تحريفا لاســم ــ بلمون ــ ومعناها « الجبل الجميل » وقد تكون مشتقة من اســـــم ــ بوهيمون ــ احد ملوك القدس ،الذى تولى الوصاية على امارةطرابلس الصليبية ، فى السنوات الاولى من حياة الدير

واذا اختلف الناس فى تحديد كيفية انشاء الدير وتعليـــل تسميته فانهم لايختلفون على الاطلاق فى تقدير آهميته من الناحيتين التاريخيـــة والدينيــــــــة . .

فان دير البلمند يعد من أروع الآثار فى لبنان ، وكنيســـته من أقدم الكنائس ، وقبة اجراسه تعـــد فريدة فى شكلها الهندسى .

***

فى صيف سنة ١١٨٧ للميلاد ، الموافقة لسنة ٥٨٣ للهجرة ، طـــرق باب دير البلمند طارق ، فى ساعة متاخرة من الليل ، فتردد الـــراهب القائم على حراسة الباب فى فتحه ، على خلاف عادته ، فان ضـــيافة رهبان البلمند للمسافرين ايا كان دينهم ، كانت مضرب الامثـــــال فى الحواضر والبوادى . ولكن بواب الدير فى تلك الليلة اراد أن يطمئـن الى الطارق قبل ان يرفع مزلاج الباب ، بسبب ماكان يساور نفـوس الناس من قلق ، وخواطرهم من هياج ، على اثر الهزيمة الماحقـــــة التى حلت بالجيوش الصليبية على يد صلاح الدين الايوبى ، فى معـــركة حطين ، وانهيار دولة اورشــــليم ، وتفــــكك اوصال الامــــارات الصليبية . .

غير ان طارق باب الدير لم يكن غير جندى صليبى ، وواحـــد من

اولئك الذين كتبت لهم النجاة من تلك المعركة ، فهاموا على وجـــوههم باحثين عن مأوى يأوون اليه لمعالجة جراحهم ، او حصنا يستعيدون فيه قواهم تاهبا لاستئناف النضال ..

كان الرجل فى حالة يرثى لها . فقد اصيب بجراح لم تترك ناحية من نواحى جسمه سليمة من الاذى . وبلغ منــه الضعف والهـــزال مبلغهما ، فكان اشـــبه بمتســـول مـــريض منـــه بجنـــدى من جنود الصـــــليب ..

رحب به الرهبان واسعفوه بالعلاج والقوت . وانزلوه فى حجـــرة من حجرات المضيفة تطل على البحر . وعهدوا الى واحد منهم ، وهـــو « الاب روبير » اكبر سكان الدير سنا ، بالعناية بالضيف والســـهر على راحتـــه ..

وسألوه عن اسمه فقال : « هنرى التولوزى » ، من جنود القـــائد الصليبى « رينو دى شاتيون » الذى قتله صلاح الدين بيده فى معـــركة حطـــين »

واضاف الرجل الى هذا التعريف قائلا : «لقد انتهت حياتى كجندى .. واشعر باننى سائر بخطى سريعة الى القبر . ولهـــذا فقد رغبت فى الاقامة عندكم لقضاء البقية الباقية من ايامى فى طلب الغفـــران من الله عن ذنوبى وخطـــاياى »

وكان جواب الرهبان : « على الرحب والسعة . فديرنا مفتـــوح فى وجه كل ضيف عابر ، وكل مـــذنب تائب»

***

عبثا حاول الاب روبير ان يعيد الى اللاجىء المسكين صحته وقوته. فلا الاعشاب ولا العقاقير ولا الصلوات كانت مجدية . وما مرت اسابيع معدودة على اقامة هنرى التولوزى فى دير البلمند ، حتى ادرك الراهب المكلف بالسهر عليه ان المريض مشرف على الموت ، وان ايامه اصـبحت معدودة . فكاشفه بمخاوفه ، ودعاه الى الاستعداد للقاء ربه

وقابل الرجل دعوة الراهب بهدوء واطمئنان ، كأن المـوت لم يكن فى نظره غير مرحلة باقية لابد من اجتيازها ، وكأن هذه المرحلة سيكون فيها العلاج الناجع والخـلاص من العـذاب ، فاخذ يد الراهب الشيخ بين يديه ، وقبلها بحرارة وقال :

ــ ايها الاب الجليل والناسك القديس ، لقد حاولت انقاذ جسدى فلم توفق . فساعدنى الآن على انقـاذ نفسى من نيران الجحيم . فاننى أضم فى صدرى سرا رهيبا ، اود ان أفضى به اليك .. ليس فقط كانسان

عرف من تجارب الحياة حلوها ومرها ، بل ايضا ككاهن فى كـــــرسى الاعتراف ، ياتمنه المؤمنون على اسرارهم ويسردون خطاياهم ،ويستمدون منه مغفرة ذنوبهم ، وراحة ضميرهم ، قبل أن تفارق روحهم الجسد ، وتقف امام خالقها الديان الاعظـــم !

فقـــــال الاب روبـــير :

ــ اننى اصغى اليك يابنى ، كانسان ، وكاهن ، فخفف عن ضميرك اثقاله ، واعلم ان عدالة السماء فوق عدالة الارض

وفى ســـكون الليل ، على ضوء سراج زيتى معلق فى كـــــوة امام تمثـــــال العـــذراء مريم ، بـين اربعـة جدران قاتمـة عارية فى حجرة ضيقة مغلقة الباب جلس الراهب روبير على حــــافة سرير خشبى ، وجلس الجندى هنرى التولوزى بجـانبه ، وراح يسرد قصة حياته ، بصوت هادىء عميق ، ونبرات ثابتة ، بدون ان يرفـــع نظره الى الكاهن ، الذى اخذ راسه بين يديه ، وجعل يصـــغى الى الجندى بهدوء لايقل عن هدوئه ، ولكن رعشة خفيفة كانت من لحظة الى اخرى ، تنتاب أصابعه المتجعدة ، فيتكالب بها على وجهه ، أويخفيها فى طيات لحيته البيضــــاء الكثيفة ..

قال هنـــرى التولوزى :

ــ ان الاسم الذى أحمله يا أبى ليس اسمى الحقيقى . بل انتحلته لنفسى بعـــد الحادث الذى ساقصه عليـــك .

ــ ليس فى هذا ما تؤاخذ عليه يابنى : فانا ايضا احمل اسما غير الذى عرفت به بين الناس قبل دخولى الدير ..

ــ كنت اعيش فى بيت واحد مع اخى الكبير فى مدينة طرابلس ، وكان اخى يكبرنى بعشر سنوات . وله زوجة شابة لاتعادلها امرأة فى طرابلس علما وشجاعة وجمالا . ابوها من زعماء المسيحيين فى لبنان وامها ارمنية من انطاكية . وقد سميت « وحيدة » لان امها ماتت يوم ولادتهـا .. ولابد من ذكر هذه التفاصيل ياابى ، لكى بمكنك ان تحكم على مـــــدى الفظائع التى ساورويها لك ..

ــ تـــكلم يابنى واذكــــر ما شـــــئت من تفاصـــيل

ــ مرت ثلاث سنوات على الزواج رزق اخى خلالها من زوجتــه ولدين ، وكنا نقيم جميعا فى بيت واحد ، فى ظاهر المدينة ، وعلى مقربة من النهر الذى يسميه اهل البلاد ــ النهر المقدس ــ ولم يقع فى تلك المدة اى حادث من شانه ان يعكر صفو حياتنا العائلية السـعيدة ..ولو لم يرحـــــل اخى ..

ــ الى اين رحل اخوك ؟

ــ خرج الى الحرب وتركنى فى طرابلس لحراسة البيت والسهر على راحة زوجته وولديه ..

ــ فحرست وسهرت .. .. ؟

ــ ولكننى تخطيت حدود الحراسة والسهر : فقد احببت وحيدة وبادلتنى حبا بحب فخانت زوجها من اجلى ، وخنت اخى من اجلها .

ــ وعلم اخوك بما حدث ؟

ــ علم بعد عودته ولكنه لم يكن واثقا من ان الخيانة قد وقعت .

ــ وظل بين الشك واليقين ؟

ــ نعم ولكن شكوكه لم تدم طويلا ، فقد خرجنا ذات يوم الى الصيد فى الجبال ، نحن الاثنان ، ولم يكن معنا ثالث .. فعاتبنى اخى ، واشتد بيننا الجدل ، فانكرت التهمة فى بادىء الامر ، ولكنه ضيق على الخناق وجرحنى بكلمات قاسية ، فصفعته بالحقيقة المرة ، ووثب على كالوحش الكاسر ، فتراجعت وحاولت الفرار ، غير ان ذراعه كانت اسرع من قدمى فاغمد خنجره بين كتفى ، وسقطت على الارض فاقد الوعى ، وتركنى اخى على تلك الحالة ، وهرول عائدا الى طرابلس ..

ــ هذا فظيع !...

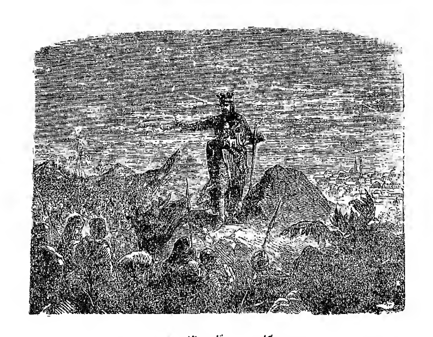
ــ وما يلى افظع منه يا ابى ، فاعرنى سمعك الى النهاية !

ــ تكلم يا بنى . فان الله يسمعك هنا كما اسمعك انا

ــ عاد اخى الى بيته ولم يعلم احد ماذا حدث بينه وبين زوجته وهل اطلعها على الجريمة التى اقترفها ام لا . والذى عرفه الناس فى اليوم التالى جعلهم يعتقدون ان اخى قد اصيب بالجنون ، لانهم رأوه فى ساعة مبكرة من الصباح يغادر بيته عارى الراس صائحا : « قتلتها ! قتلتها ! » ويفر الى الجبال لا يلوى على شىء . اما الزوجة فقد وجدوها مخنوقة فى فراشها وبجوارها الطفلان اليتيمان مرعوبين منتحبين !

ــ واخوك ؟

ــ لم يره احد منذ ذلك الوقت ، وظن الناس انه انتحر او افترسته الوحوش فى الغابات !



ريكاردوس قلب الاسد
ثلاث مرات وقف أمام أسوار المقدس
وثلاث مرات أحجم عن مهاجمتها



ـ وانت ياولـــدى ؟ .. انـــك لم تمت ما دمت اراك الان امـــامي !

ـ كلا ، لم امت بالرغم من ان الطعنة كانت غماسة نجلاء ! فقـــد عثر على جماعة من الحطابين الجبليين غارقا فى بحر من الدماء بـــين الصخور فنقـــلونى الى كوخ على ضـــفة الغـــدير ، وانتزعونى من الموت انتزاعا ، فعدت الى طرابلس بعـــد شهرين كاملين .

ـ عدت للاخـــذ بثـــارك ؟

ـ نعم ، وقد هالنى ان يفلت اخى من يدى ، بعد ان اعتقد انـــه تركنى جثة هامدة فى الجبال ، وبعد ان قتل المراة التى تخلت عنـــه واحبتنى ، ولم اجد امامى غير الطفلين ، وقد تبناهما الجيران ، فداهمتهما ليلا وذبحتها بهذه اليد ، التى تمسك بيدك الآن يا ابى

ـ فعلت هـــذا ؟ ..

ـ فعلت هذا وانطلقت هائما على وجهى فى البرارى والقفار . . . وانتحلت الاسم الذى عرفت به منذ ذلك الوقت اسم ـ هنرى التولوزى ـ وقادتنى قدماى الى حصن من الحصون التابعة لرينو دى شاتيون ، فى البلاد الواقعة شرق الاردن ، فالتحقت بجنود ذلك الامير اللص ، وجعلت اشاركهم فى حروبهم احيـــانا ، وفى السطو على القوافل احيـــانا أخـــــرى . . .

ـ وارى ان المعـــارك التى خضت غمـــارها قـــد تركت فيـــك آثـــارها

ـ ان الجراح التى اصبت بهـــا لايمكن حصرهـــا فى هذا الجســـم الفانى يا ابى ! .. ولكن آلام الجسد لاتقاس بآلام النفس ، فاننى اتعذب منذ سنين عديدة ، ولم اذق طعم الراحة ليلة واحدة ، خلال هذه الحياة المملوءة بالمغامرات ..

ـ وما جاء بك الى هنا ؟

ـ غلب الصليبيون على امرهم كما تعلم فى معركة حطين عـــلى ضفاف بحيرة طبرية ، ووقع ملكهم وامراؤهم فى الاسر ، وقتل رينو دى شاتيون ولجأ من لجأ من الفارين الى اسوار بيت المقدس ، ولســـت ادرى ماهى القوة التى دفعتنى فى طريق طرابلس ، مسرح جـــريمتى وجريمة اخى . . . ولكننى لم أصل اليها ، بل آثرت دخول هذا الدير على ان لا أخرج منه بعد الآن ..

ـ وهذا مافعله أخوك من قبل يابنى ؟

ـ اخى ! ؟

ـ نعم اخوك شارل ليبار .. يافليب ليبار !..

فانتفض الجندي .. ورفع راسه .. والتقت عيناه بعيني الراهب الدامعتـــــين ..

وسكت الرجـــلان ، وحــدق كل منهمــا البصـــر فى الاخـــر ...

وتمتـــــم الراهب روبـــير ...

ـ اما عرفتنى يافيليب ؟ انا اخوك شــــارل .

ـ انت ... ؟

ـ اخوك الذى طعنك طعنة ظنها قاضية ، فى سفح الجبل الـذى تعلوه غابات الارز .. اخوك الذى اراد قتلك والذى قتل زوجتـــه بسببك .. والذى انتقمت منـــه بقتــل ولديه .

ـ شــــارل .

ـ شارل ، نعم . بعد جريمتى البشعة ، خرجت من البيت لاالوى على شيء ، وفكرت فى الالتجاء الى حصن من حصون المسـلمين . ثـم قادتنى قدماى الى مقر السلطان صلاح الدين ، فطلبت حمايته بعـــد ان رويت له ماحدث لى ، وما اقترفته يداي . ولكنه انتهرنى قائلا :

« نحن لانحمى غير الابرار من الناس ، حتى ولو كانوا من الاعـداء. ونطرد الاشرار حتى ولو كانوا من الاصدقاء »

سكت الراهب لحظة ، ثم استطرد قائلا :

ـ هالنى ما قاله لى سلطان المسلمين .. ولكننى الححت عليــه بالطلب .. قائلا ان عودتى الى بنى قومى تعرضـنى للخطر .. فـــكان جـــــوابه :

« **اذهب وادخل الدير وكفر عن آثامك . ففى الدير وحده يمكنك** ان تختفى عن الانظار ، بين الرهبـان الصالحين »

ـ وبعـــــــد ؟

ـ وبعد .. جعلت اتنقل من مكان الى مكان ، وانا افكر فيما قاله لى السلطان صلاح الدين ، وقررت اخيرا ان اعمل باشارته ، فجئـــت الى هنا ، الى هذا الدير ، حيث تلقانى الرهبان بالترحيب ،وافسحوا لى مكانا بينهم ، بدون ان يسألنى احد منهم عن سبب اعتزالى الحيـاة العامة وهربى من العالم والتجائى الى الدير . وهنا عرفت باسم «الاب روبير » كما عرفت انت بين رفاقك باسم « الجندى هنرى التولوزى »

ظل الاخوان واقفين جامدين لحظة أو لحظات ، يحاول كل منهما ان يفوه بكلمة فيعقد عن النطق لسانه وتعبر الدموع وحدها عما يتلاطم فى صدره من عواطف ومشاعر من فرح ممزوج بالالم ، من امل ممزوج بالخوف ، من رجاء ممزوج بالحيرة !

وفجأة ، فتح كل منهما ذراعيه ، والقى بنفسه فى احضان الاخر ...

وامتزجت زفرات الاخوين التائبين بهدير الامواج المتزاحمة على صخور الشاطىء ...

ــ شارل !

ــ فيليب ! ..

ــ لقد تعذبت كثيرا ياأخى .. وبكيت كثيرا .. وصليت كثيرا من أجلك ومن أجل وحيدة أيضا ، ومن أجل خلاص نفسى فى الآخرة !... ولكننى لم انج من تبكيت الضمير .

ــ وانا ياشارل .. لم يكن عذابى أقل من عذابك .. لقد قتلتنى ، أو حاولت قتلى ، وقتلت زوجتك لانها كانت خائنة كما كنت انا خائنا فنحن الاثنان كنا مذنبين نستحق القصاص ... اما انا ، فقد اخمدت أنفاس طفلين بريئين ، لم يقترفا اثما ، ولم يستحقا عقابا ... ولهذا فان جريمتى افظع من جريمتك .

ــ نحن فى الاجرام سواء عند الله ، وعنده سواء فى العقاب . . . فلنفزع اليه معا ، يا اخى ، لعله يرحمنا ويغفر لنا ..

ــ لقد غفرت لك ياشارل فاغفر لى انت !..

ــ وانا ايضا غفرت لك يافيليب !

ركع الاخوان جنبا الى جنب ، وانبعث من صدريهما دعاء واحد، وانطلقت من بين شفاههما صلاة واحدة ، فارتفعت الى الله عز وجل فى عليائه .. :

« ربنا ، تقبل توبتنا ، وامح خطايانا ، واصفح عن ذنوبنا ، وارحم ضحايانا ، وانسح لنا مجالا فى ملكوتك السماوى ، فقد كفرنا بما عانيناه من عذاب عما ارتكبناه من جرائم . انك الرحمن الرحيم ، السميع المجيب .. آمين »

ثم نهض الاخوان ، وتعانقا مرة اخرى ، وقال الاب روبير ــ اوشارل لاخيه هنرى ــ او فيليب :

ــ شاركنى ياأخى فى الدعاء الى الله بان يحفظ السلطان صلاح

الدين ويجازيه خيرا عما اسداه الى من نصح يوم لجأت اليه . فلو لم يتسر على بأن اذهب الى الدير واكفر فيه عن آثامى ، لما جئت الى هنا ولما التقينا معا فى هذا المـــكان ..

***

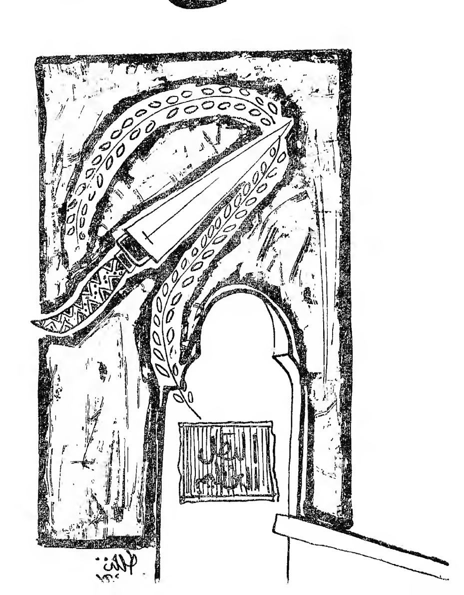
اشتدت فى اليوم التالى وطأة الضعف على فيليب ليبار ، المعروف بهنرى التولوزى ، ففاضت انفاسه الاخيرة بين ذراعى اخيه الاكبـــر ، شارل ليبار ، المعروف بالاب روبير فقد اغمض الراهب عينى اخيه باليد التى طعنته بالخنجر ، قبل ذلك باعوام كثيرة لتقتلع روحـــــه من بين جنبيــــــــه ...

وشاءت الاقدار الساخرة ان لايعيش الاخ طويلا بعد موت اخيـــه، فقد لسعته حية فى الاسبوع التالى ، وسرى السم فى جسمه ، فلحـــق الراهب بالجندى ، وضم رفاتهما قبر واحـــــد .. .

ولو نبش رهبان البلمنـــد اليوم اقبية ديرهم ، حيث يرقـــد رفاقهم الذين سبقوهم الى العالم الاخر . فقد تعثر ايديهم على هيـــكلين عظميين متشابكين فى حفرة واحدة

تلك هى البقية الباقية من الاخوين التائبين !

على قبر صلاح الدين



في اليوم الثاني من شهر ايلول ـ سبتمبر سنة ١١٩٢ ميلادية، الموافقة لسنة ٥٥٨ للهجرة ، تم الصلح بين الملك الناصر صلاح الـدين الايوبي ، سلطان الديار المصرية والشامية ، وريكاردوس الاول الملقـب بقلب الاسد ، ملك الانجليـــز .

وضع ذلك الميثاق حدا للحرب الصليبية الثالثة ، بعد صراع مرير استغرق سنتين كاملتين ، وكانت الارض المقدسة في سورية الجنـــوبية مسرحـــــا له ..

كان على راس الجيـــــوش الوافدة من الغـرب ، ثلاثة من ذوي التيجـــــــان :

فردريك بربروس امبراطور المانيا ، وفيليب اوغست ملك فرنســا وريكاردوس ملك انجلتـــــــرا ..

مات الاول غرقا في قيليقية ، وعــاد الثـاني الى بلاده بعد اقامة قصيرة في الشرق ، وبقي الثالث وحده .. فتولى قيادة الحملة ، وخاض غمار المعارك ضد خصمه القوي ، الذي كان قد وحد القطرين ، مصـر وسورية في دولة متماسكة الاطراف منيعة الجوانب

اخذ عكاء ويافا وغيرهما من المعاقل الحصينة ، في صيف ســنة ١١٩٠ ، الموافقة لسنة ٥٨٦ هجرية ، وزحف ثلاث مـرات متـوالية في اتجـــاه القدس ، ورجع عنها في كل مـــرة بدون ان يهـــاجم اســــوارها ..

وادرك في النهاية الا فائدة من مواصلة القتال ، وان التفاهم الودي خير واوفى من الاصرار على تحكيم القوة ، بينه وبين السلطان ، وان صلاح الدين كان على حق يوم كتب اليه يقول، في بدء الحرب بينهما ، ان الحملة الصليبية الاولى لم تكلل بالنجاح الا لان الافرنج وجدوا في الشرق دولة مفككة الاوصال اضعفها التناحر والتخاذل . اما وقد توحدت هـــذه الدولة وتماسكت اجزاؤها ، فان كل هجوم عليها في المستقبل سـيكون مصـــيره الفشـــل والهزيمة !

وبموجب معاهدة الصلح التي عقدت بين الطرفين المتحاربين ، لمـدة ثلاثة اعوام وثلاثة شهور ، بقيت بعض المواقع الساحلية في ايدي الافرنج وتعهدوا بالا يتخذوها قواعد لغزو الاراضي المجاورة لها ، وترك صـلاح

الدين القدس مفتوحا امام النصارى الراغبين فى زيارة قبر المسيح فيها ، على شرط الا يدخلوها مسلحين ..

واصبح العدوان منذ ذلك الوقت صديقين . وكان كل منهما شديد الاعجاب بشجاعة الاخر ، ومهارته فى قيادة الجيوش

وتم تبادل الاسرى بين الفريقين ..

وارسل ريكاردوس يقول لصلاح الدين : « لقد استبقيت عندى الفتى ابراهيم بن سريع واخته بسمة فهل يجد السلطان مانعا فى ان اصطحبهما معى الى بلادى ، اذا وافقا على هذا ؟»

وكان رد صلاح الدين : « لامانع عندى فى ان يذهب الفتى فى صحبة الملك الى بلاد الانجليز ، اذا اراد ذلك بلا اكراه . اما الفتاة ، فاننى افضل ان تبقى هنا فى حمايتنا ، وان تعيش فى كنفنا . فهى تذكرنا بان اباها كان جنديا مخلصا ، وواحدا من النصارى الذين حاربوكم فى صفوفنا !!»

وعمل ريكاردوس قلب الاسد باشارة صلاح الدين الايوبى ، ونفذ له رغبته ، واعاد اليه بسمة بنت سريع الجليلية ، واحتفظ باخيها ابراهيم لياخذه معه الى بلاد الغربة ...

***

● اقلعت السفن من موانىء الارض المقدسة فى التاسع من شهر اكتوبر سنة ١١٩٢ ، عائدة الى الغرب بالبقية الباقية من الحملة التى قادها ملك الانجليز ، ولم يتخلف غير بضع عشرات من الرجال والنساء آثروا البقاء فى الشرق ، والاقامة فى المدن والحصون .

وعلى ظهر السفينة التى رفعت عليها الاعلام الملكية ، وقف الفتى ابراهيم بن سريع ينظر الى الشاطىء وقد انقبض صدره وترقرقت الدموع فى عينيه ، وراح يناجى نفسه متسائلا : « هل اخطأت فى الالتحاق بهؤلاء القوم ؟.. وماذا ينتظرنى فى بلاد ساكون غريبا فيها ؟..وهل اندم فيما بعد على ما اصنعه اليوم ؟» ..

كان ابراهيم وبسمة توامين . ولم يكونا بعد قد بلغا الخامسة عشر من العمر يوم حرما من رعاية ابيهما واصبحا يتيمين .. وقد دفعت الاقدار كلا منهما فى طريق .

سارت السفن شمالا ثم اتجهت غربا ودخلت البحر الادرياتيكى .. وهناك داهمتها عواصف هوجاء ، فتفرقت باحثة عن ملاجىء تأوى اليها على طول الساحل .

كانت سفينة الملك اسوأ حظا من غيرها . لقد تعذر على ربانها

ان يتغلب على الرياح والامواج ، فقرر ريكاردوس فجأة ان ينزل الى اليابسة ويواصل السفر برا ، فيجتاز بلدانا يناصبه حكامها العداء

ترك لرفاقه حرية اختيار الطريق الذى يريدونه ، للعودة الى ديارهم وتنكر هو فى زى حاج عائد من الارض المقدسة ، ودخل ارض النمسا حيث كان يتولى الحكم الدوق ليوبولد الاول ، الد اعدائه . والتابع الامين لامبراطور المانيا هنرى السادس . فعرفه رجال الدوق ،واعتقلوه واخذوه الى سيدهم ، الذى سلمه الى الامبراطور فزج به هنرى السادس فى سجن مظلم ..

عرف قلب الاسد الذل والهوان ، وذاق مرارة الاسر ، ولم يسترد حريته الا بعد أن افتدى نفسه بمبلغ كبير من المال ، فخرج من سجنه فى الثانى من شهر مارس سنة ١١٩٤ ، أى بعد ابحاره من سورية بنحو سنة ونصف

ووصل الى بلاده بعد غيبته الطويلة ، فاذا به يجدها غارقة فى الاضطرابات والقلاقل ، بسبب انتقاض اخيه عليه ، ومحاولته اغتصاب العرش منه ، بمساعدة حليفه السابق ملك فرنسا فيليب اوغست فحارب الثائر المتمرد وتغلب عليه واستاثر بالحكم والعرش والتاج .

وكان ابراهيم بن سريع ، الفتى العربى ، قد وصل الى انجلترا مع الجنود والحجاج الذين نجوامن العواصف وافلتوا من الاعداء . فشمله الملك بعطفه ، وجعله واحدا من حملة اعلامه فى القصر ، واصدر امره بان يعامل الفتى الذى تبناه كفرد من افراد الاسرة المالكة

ولكن ابراهيم بن سريع كان حزينا كئيبا ..

وازداد الشاب حزنا وكابة ، يوم حمل الحجاج العائدون من الشرق خبرا لم يكن وقعه على قلب ابراهيم بن سريع العربى اخف من وقعه على قلب الاسد الانجليزى نفسه : لقد مات صلاح الدين الايوبى ،فى السنة التالية لمعاهدة الصلح ، التى انهت الحرب الصليبية الثالثة ودفن السلطان فى عاصمة دمشق ، واصبح قبزه ، بجوار المسجد الاموى محجة للزائرين ..

وقال الفتى للملك : « اريد أن اعود الى بلدى ! »

فقال الملك الفتى : «عد الى بلدك فاننى اقدر العاطفة التى تغذى هذه الرغبة فى نفسك ! ولكننى اريد لك سفرا مضمونا ، فارحل مع اول قافلة للحجاج ، تقصد الى الشرق . وسيكون معك اثنان من رجالى المخلصين يسهران عليك فى الطريق »

ولما ازف وقت السفر ، ودع ريكاردوس قلب الاسد صديقه وضيفه العربى ، وقد بلغ منه التأثر مداه ، وقال له :

ــ خذ هذا الخنجر يا ابراهيم . انه خنجر دمشقى اخــذته من امير عربى وهو يحتضر فى ميدان القتال ، عند ابواب يافا . دافع بــه من نفسك اذا ما داهمك خطر فى الطريق ، وفى دمشق ، ضعه على قبــر صلاح الدين الايوبى ، الملك الناصر ، والخصم الشريف الذى اختبــرت صفاته وشمائله ، فى ايام الحرب وايام السلم على السواء .. وخذ : هذا الرداء المصنوع فى بلادنا ، هدية منى لاختك بسمة ، التى تركتها هناك فى حماية صلاح الدين ، وقد تكون الآن فى حاجة الى من يسهر عليها .

واستطرد ريكاردوس قائلا :

ــ وهذه صرة من النقود ، لك ان تفعل بها ما تشاء .

***

● مع فوج من الحجاج الافرنج ، بلغ ابراهيم بن سريــع الارض المقدسة ، فى اوائل سنة ١١٩٧ ميلادية ، الموافقة لسنة ٥٩٤ للهجــرة بعد رحلة شاقة بالبر والبحر ، كانت مليئة بالمتاعب ولكنها خالية مــن الاخطار فقد ارادت العناية الالهية ان يرجع الفتى الى وطنــه سليمــا معــــافى ..

وصل ابراهيم الى دمشق . وذهب الى الجامع الاموى فشــكر الله على رعايته ، ثم قصد الى الضريح ليبلغ الرسالة ، ويؤدى الامانة

وفوجىء بما لم يكن ينتظر ويامل !

على باب الفناء الخارجى ، كانت اخته بسمة واقفة تتطلع يمينــا ويسارا ، كانها على موعــد

وكان اللقاء الاول ، بعد فراق دام نحو خمسة اعــوام

وقدمت الأخت لاخيها رجلا واقفا على بعد خطوتين منها : «زوجى يا ابراهيم .. مرقص الصائغ ، من دمياط »

واتجه ابراهيم بن سريع ، ومعه بسمة وزوجها ، وخلفهم عشــرات من الرجال والنساء ، الى القبر الذى يضم الوديعة الكريمة ، جثمــان الملك الناصر صلاح الدين الايوبى ، فوضع الشاب عليه خنجــر المــلك الذى حاربه بالامس ، وتلا الحاضرون الفاتحة على روح البطل العظيم

عرفت بسمة من اخيها ماحدث له منذ رحيله من ارض الوطــن الى ديار الغربة ، مع ملك الانجليز . وعرف ابراهيم من اخته كيف ان

صلاح الدين اعطاها بيتا فى دمشق ، واعطاها مع البيت زوجا فى شخص الصائغ المصرى ، الذى كان يعمل فى بيت المال بالقاهرة ، ثم انتقل الى دمشق بامر من السلطان . .

وعرف ابراهيم ايضا كيف مات صلاح الدين بعد عودته من الصيد ، فى سنة ٥٨٩ هجرية، الموافقة لسنة ١١٩٣ للميلاد ، بعد ان وطد ملكه ووضع حدا للحرب بينه وبين الافرنج .

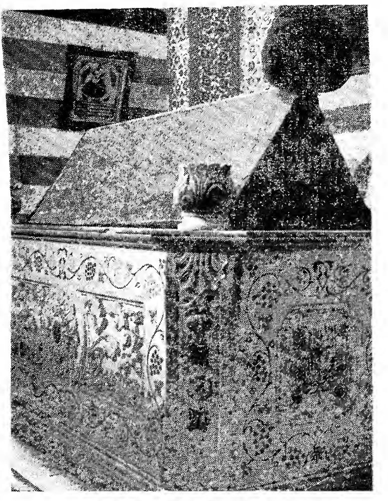
وعرف اخيرا كيف ان الصائغ وزوجته اصبحا من حراس القبر

فقرر ابراهيم ان ينضم اليهما ، ويحرس القبر ايضا ، مع حراسه المسلمين ، وفاء لذكرى السلطان صاحب الفضل على اسرته

اما المال الذى حمله معه من الملك ريكاردوس ، فقد وزعه على الفقراء ، ولم يحتفظ بشيء منه لنفسه .

بعد وفاة الملك الناصر يوسف صلاح الدين الايوبى ، سلطان الديار المصرية والشامية ، مات الملك ريكاردوس الاول ، الملقب بقلب الاسد ، ملك الانجليز .

فقد خرج فى غزوة الى اقليم ليموزان بفرنسا ، على امل ان يعثر فيه على كنز قيل له ان احد الاشراف قد خبأه هناك ، فاصيب بجرح عميق من سهم مسموم، وقضى نحبه فى ٦ ابريل سنة ١١٩٩ . وكان دائما يذكر بالخير خصمه النبيل الشهم المغوار ، الملك الناصر صلاح الدين . .



ضريح صلاح الدين بدمشق

فهـــرس

الدار القومية للطباعة والنشر

١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

فرع الصحافة : ١١ شارع الصحافة
تليفون ٨١٣٠٣٤ ـ ٨١٣١١٩ ـ ٨١٣٢١٤

المصحح : أ٠ش

« طبع هذا الكتاب على ورق صناعة شركة راكتا »



من الشرق والغرب

تقدم

بين آمو - داريا وجمنا

بقلم
أرنولد توينبي

العدد ٥ . الثمن ٢٥ قرشاً

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد – روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ – ٤٥٤٠٥ – ٣١٦٢٥